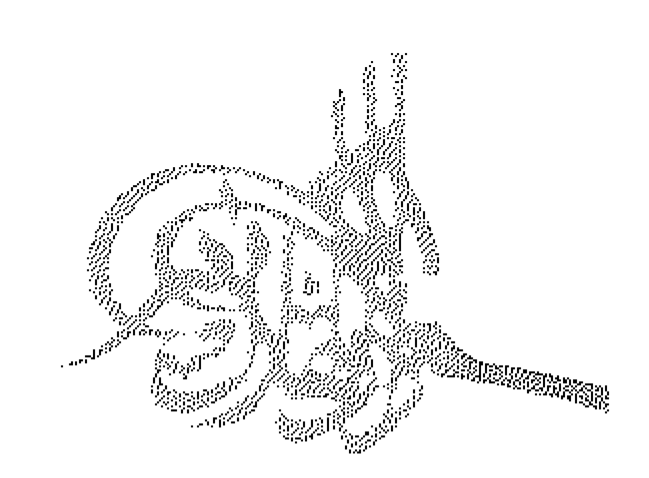
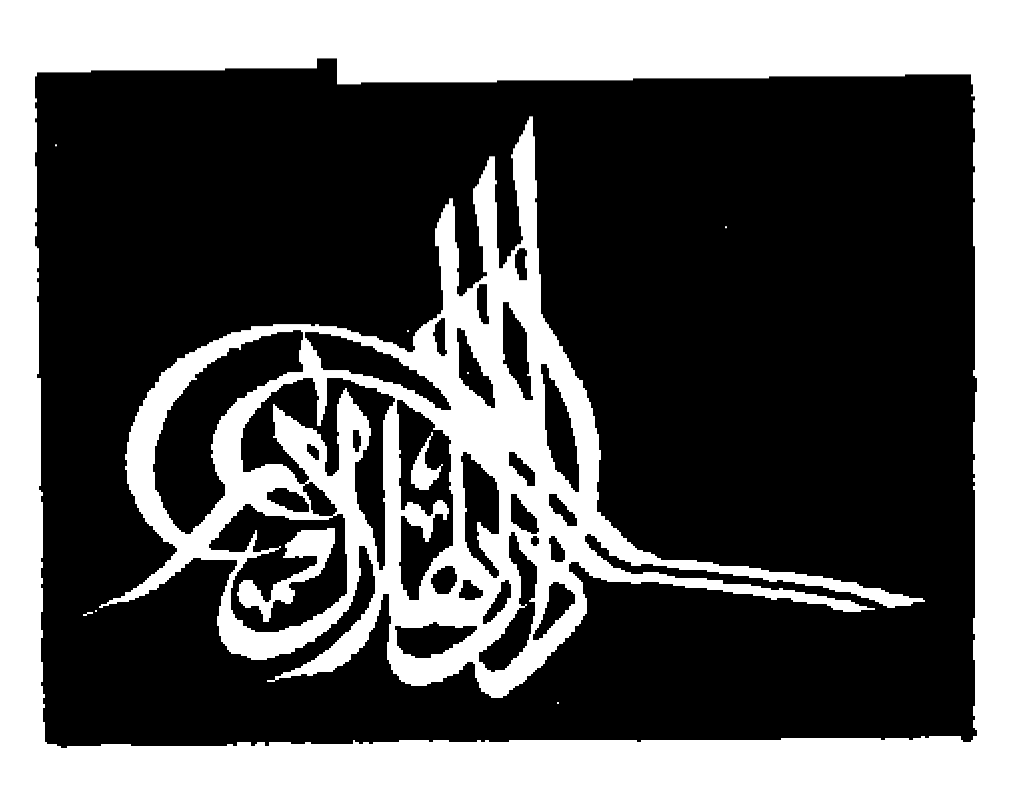


د. عبد الغفار مكاوى

القيصر الأصفر

١٧٥ قرشاً


توشيبا مع العربي
تقدم أجمل مروحة
في عز الصيف
من غير تكييف
بتكيف مطرحك
دعها تعمل ليلاً ونهاراً بدون توقف فنحن نضمنها
ضمان الثقة
* صناعة مصرية .
* جودة عالمية .
* بترخيص من توشيبا العالمية .



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٢ ذو القعدة ١٤٠٩ - مايو ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :

مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :

مصطفى نبيل

مدير التحرير :

عايد عياد

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٧٥ قرشا للقارىء فى مصر :

سوريا ٨٥ ليرة ، دبى ١٠ دراهم ، لبنان ١٢٠٠ ليرة ، أبوظبى ١٠ دراهم ، الاردن ٢٠٠٠ فلس ، الحديدة ٨ ريالات ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، مسقط ١ ريال ، العراق ٨٠٠٠ فلس ، المغرب ٢٠ درهما ، السعودية ١٠ ريالات ، تونس ١٧٥٠ مليما ، الدوحة ١٠ ريالات ، غزه والضفة ١ دولار ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، لندن ١٥٠ بنسا

الغـــــلاف بريشـــــــة
الفنان: محمد أبو طالب

القيصر الأصفر

ومسرحيات أخرى شرقية

بقلم

د. عبد الغفار مكاوى

دار الهلال

تمهيد

من الشرق يطلع النور ، وإليه اتجه الغرب ـ على حد قول الشاعر والمترجم العبقرى و «عاشق الأدب العربى» فريدريش ريكرت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) ـ كما يتجه القمر الشاحب لضياء الشمس كى يتجلى بنورها ويحدق فيها وجها لوجه . واذا كان بعض ادباء الغرب قد رجعوا الى الشرق لينهلوا من منابعه الروحية ، ويلقوا بأنفسهم فى أحضان «الأم الأولى» للغة والشعر والحضارة ، ويحاكوا مواده واساليبه الفنية والأدبية محاكاة بداعية ، فقد آن الأوان لكى يتوجه الشرقى صوب الشرق ، لعله أن يتعرف على كنوزه ، ويحقق يوما ذلك الأمل العسير الذى تلخصه حكمة سقراط ومعبد دلفي : «اعرف نفسك» .. يتساوى في ذلك الشرق الادنى الذى لم نقترب بعد من جوهره ولم نتمثل حقيقته التى تكشف عنها آثاره الفنية والأدبية والفكرية فى مصر القديمة وأرض الرافدين ، أو الشرق الأقصى الذى لم يزد اهتمامنا بتراثه الضخم عن عدد جدٍّ قليل من الترجمات والتعريفات المبتسرة ، ناهيك تقصيرنا حتى اليوم فى دراسة لغاته وآدابه ومدارسه الفكرية دراسة علمية دقيقة كما تفعل كل البلاد المتقدمة ..

وليست المسرحيات التى تلتقى بها فى هذا الكتاب مجرد «مسرحة» لمجموعة من الحكايات والنصوص التى اطلعت عليها عن اختيار أو اضطرار ـ بحكم عملى فى تدريس الفلسفة الشرقية .. ولا هى محاكاة

لأشكال ونماذج من الشعر والحكمة المأثورة عن عالم غامض بعيدا (على طريقة ريكرت وبلاتين مثلا فى الأدب الالمانى) ، وانما هى احاسيس وافكار وقيم ومواقف جربتها وعايشتها خلال سباحتى المتواضعة فى بحر الشرق ، ثم ألبستها ثيابا صينية وبابلية ، آملا أن تشف لعين القارىء المتعاطف عن هموم مصرية وعربية تجيش بها نفوسنا . ويكفى ان نتذكر أن «جوته» (١٧٤٩ - ١٨٣٢) صاحب الديوان الشرقى[1] (١٨١٩) وأول من بدأ حركة الاستلهام الأدبى للكنوز الشرقية بصورة جادة ومبدعة قد عكف على كتابة ديوانه اثناء حرب التحرير الالمانية من طغيان نابليون ، وأن الكاتب العربى الذى يحج اليوم الى حكمة النفس الشرقية يريد كذلك ان يتحرر ويساعد غيره على التحرر من أمراض اصابت النفس العربية بالتشوه ومرّغتها فى حضيض «الأنا وحدية» والتسلط والانتهازية وسائر «اللاقيم» التى تجتاح ذواتنا الفردية والجماعية وتدفعها لتدمير نفسها بنفسها . ولذلك فإن الاتجاه الى حكمة الشرق القديم ليست هروبا من محنة حاضر تهدده الكوارث ، وانما هو محاولة للتزود بزاد روحى يمكن - بجانب الأصرار على الحرية والفكر العلمى المستنير - أن يعين على الخلاص منها .

* * * *

والمسرحية الأولى فى هذا الكتاب ، وهى القيصر الأصفر ، ثمرة انشغال طويل بالفلسفة الصينية القديمة المعروفة باسم «الطاوية» أو فلسفة «الطاو» (الطريق) التى تقول بالعودة الى الطبيعة والحياة فى ظل البساطة والبراءة والسكينة والاستغناء ، بعيدا عن كل رغبة أو فعل يمكن أن يفسد مجرى الطبيعة ويعوق التوافق والتجانس معها ، بذلك يتحد الانسان «بالطاو» أو بالأخرى يصبح هو «الطاو» ، لأنه هو الطريق

---

(١) راجع قصة هذا الديوان ونماذج مختارة منه مع موقفنا من الأدب العالمى فى كتاب المؤلف «النور والفراشة» ، دار المعارف ، اقرأ ، ١٩٧٩ .

والمعنى ، وهو الحقيقة والأصل والقوة التى تسيِّر الكَون ، وهو الواحد الأزلى الابدى الذى لا يوصف ولا يسمى . وقد اقترنت الطاوية باسم الحكيم المؤسس لها وهو لاو ـ تزو (من حوالى ٥٧٠ الى حوالى ٥١٧ ق . م) ، كما ارتبطت باسم الحكيم الذى بعث فى افكارها المجردة أنفاس الحياة وأضفى عليها من شاعريته المبدعة ومثاليته الحالمة ، وهو تشوانج ـ تزو (من حوالى ٣٦٩ الى ٢٨٦ ق . م) .

يختلف العلماء حول اسم لاو ـ تزو نفسه : هل هو عنوان مذهب ومدرسة أخلاقية وصوفية دونت تعاليمها فى واحد وثمانين حكمة شاعرية تحمل اسم «اللاو ـ تزو» وتعرف بكتاب «تاو ـ تى ـ كنج» (الطريق والفضيلة)(٢) ، أم أنه ـ حسب معناه فى اللغة الصينية ـ هو المعلم الهرم الفيلسوف العجوز او الكامل بين القدماء (أو ـ ثان) الذى اعتزل الناس وذهب الى محو الذات والاتضاع واجتناب الشهوة والحرص على رغبة واحدة هى عدم الرغبة فى شىء ؟ ...

وتختلف الروايات المأثورة كذلك حول هذا الحكيم الصينى . فبعضها يجعل تاريخ مولده فى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والسادس قبل الميلاد ، وبعضها الآخر يؤكد أنه عاصر حكيم الصين الأكبر كونج ـ فو ـ تسو أو كونفوشيوس (من ٥٥١ ـ ٤٧٩ ق . م) الذى كان يصغره فى العمر ، وأن الأخير سعى للقائه حوالى سنة ٥١٧ ق . م فعنّفه المعلم العجوز على غروره وادعائه وكثرة تعليماته وقواعده الاخلاقية والاجتماعية ، ونصحه بالعودة الى طريق الحكماء القدماء .. ومن هذه الروايات ما يزعم أنه عاش مائة سنة ، ومنها ما يدعى أنه لم يمت أبدا ، حتى إن كاتبا طاويا من القرن الرابع بعد الميلاد يقرر أن لاو ـ تزو قد ظهر عدة مرات خلال التاريخ ، وأنه فى احدى جولاته الى الغرب من جزيرة سيلان قد ولد ولادة جديدة على هيئة بوذا ... غير أن أرجح المعلومات التاريخية تقول إنه ولد فى مزرعة بمقاطعة هو ـ نان

---

(٢) نقله المؤلف الى العربية وصدر فى سلسلة الألف كتاب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

(الى الجنوب من بكين) وعمل أمينا للوثائق والمحفوظات فى بلاط مملكة تشو ، فى فترة من أشد فترات التاريخ الصينى اضطرابا واكثرها حروبا . ويبدو أنه اقتنع بعد خدمته الطويلة فى «تشو» بأن الدولة فى طريقها الى الخراب ، فاعتزل العمل ، ووضع متاعة القليل على عربة يجرها ثوران اسودان ، واصطحب معه صبيا صغيرا كان هو تابعة الأمين فى رحلته . وعند حدود الأمبراطورية وأمام بوابتها الأخيرة تعرف عليه موظف الجمرك او حارس الحدود ورجاه أن يقيم فى كوخه الفقير ويدوّن فلسفته فاستجاب لرجائه وأملاه أكثر من خمسة آلاف كلمة يتألف منها ذلك الكتاب العجيب الذى ذكرناه . ثم رجع الى عربته ومعه الصبى الصغير وعبر الجبل فى طريقه إلى الغربة فلم يظهر بعد ذلك ابدا ولم يعرف المكان الذى مات فيه ، وان كان البعض يرجح أنه مات فى التبيت .

وتعتمد المادة التى نسجت منها «القيصر الأصفر» على شخصية هذا المعلم الحكيم والكثير من أقواله واشعاره التى وردت فى الكتاب الشهير المنسوب اليه ، كما تعتمد على عدد من الحكايات والامثولات التى جاءت فى كتابات حكيم الطاوية الآخر تشوانج تزو . واذا كان لاو ـ تزو يقوم بدور ثانوى فى المسرحية ، فإن «بطلها» ـ اذا صح الحديث هنا عن بطولة ! ـ هو تلميذه الناسك الشاب الذى أعطيته اسم «مين ـ كين ـ وو» . وهو قديس ثائر أو ثائر قديس يحمل بين جنبيه ذلك الطموح الذى يعذب المصلحين ويُتعذبون به ، ألا وهو الطموح الى تغيير العالم . بيد أن الناسك الشاب يتعجل تغيير العالم قبل أن يغير نفسه .. ويحاول معلمه ان يردّه عن تهوره فلا ينتصح ، وينطلق لمواجهة الظلم والقهر والتسلط المجسد فى شخصية القيصر الأصفر فيلقى الأهوال ولا يتخلى عن حلمه باقامة العدل . وينزوى بعيدا فى قرية منسية على حدود الصين يحقق فيها نوعا من «اليوتوبيا» الصوفية التى تصورها حكماء الطاوية فى صورة الجماعة الانسانية المثالية التى تعيش تحت ظلال المحبة والتراحم والوداعة والنقاء . ولكن هل تصمد مثل هذه «اليوتوبيا» لقوى الظلم والردع والعقاب التى اشتهرت

بها الصين القديمة ؟ وهل يمكن في ظروف عالمنا المعقد ان نفكر فيها لحظة واحدة ، أم هي شطحة من شطحات الحكماء والأدباء لا تستحق منا اليوم أكثر من ابتسامة الاشفاق والرثاء ؟ ليس مهما ان نجيب عن هذه الاسئلة . فالأهم من ذلك أن «اليوتوبيا» ، حتى على هذا المستوى البسيط المتواضع ، تظل حلما لا نستطيع ان نتخلى عنه بسهولة . واكثر من ذلك اهمية انها تعبر عن ضرورة خالدة لا يمكن التنازل عنها ، وهي ضرورة تحدى التسلط الذى يسحق كل احلام الانسان ، لا في حياة حرة وعادلة ومبدعة فحسب ، بل في مجرد أن يحيا حياة سوية . ولا يخفى على القارىء ان التسلط مرضنا العربى المزمن الذى لا أمل في شىء على الاطلاق قبل القضاء عليه .. ولولا ضيق المجال لطال بى الحديث عن هذا الموضوع الشائك الذى يمدُّ جذوره في تراثنا ونظم حياتنا وتعليمنا وسلوكنا ، والذى ترك في نفسى جراحا ستلازمنى الى آخر عمرى وتدخل معى في قبرى ...

* * * *

والمسرحية الثانية وهى «الطفل والفراشة» أثارتها في نفسى احدى حكايات «تشوانج ـ تزو» البديعة التى تقوم على المفارقة الذكية المحيرة ، والنزعة المثالية المتطرفة الى الحد الذى تطمس معه الحواجز الفارقة بين الحقيقة والوهم . ولعل هذه النزعة الذاتية المسرفة ـ التى تظل تهدد الشعراء والأدباء والفلاسفة ان لم يحترزوا منها بالبدء من الواقع الحى وموضوعية البناء الفنى والفكرى ! ـ قد كانت وراء تشدد تشوانج ـ تزو في تأكيد الجوانب السلبية في الفلسفة الطاوية ، وخصوصا عدم الفعل «الوو = وى» الذى سبق الحديث عنه ، بحيث صورها في صورة الفلسفة الرافضة للقيام بأى دور اجتماعى واصلاحى اوالعاجزة عنه ، وذلك خلافا لما أراده مؤسسها الأول الذى ضمنها آراء ومواقف تعدُّ ثورية بكل المقاييس الى اليوم . ولعل ذلك ايضا كان من اسباب معارضة علماء الكونفوشية لتفكير تشوانج ـ تزو واتهامهم له بمعاداة الانسان والتقاليد والمجتمع ،

ومعاشرة الأشباح والظلال والرياح الشمالية وجماجم الموتى ...

ونص الحكاية التى أشرت اليها لا يزيد عن سطور قليلة يقول فيها الحكيم الحائر المحيَّر : «حلمت ذات ليلة» ، أنا تشوانج ـ تزو ، بأننى فراشة ترف هنا وهناك ، واننى أشبه الفراشة من كل ناحية . لم أدر إلا أننى أتابع أهوائى كما تفعل الفراشة ، وغاب عنى الوعى بأننى إنسان . وفجأة صحوت مستيقظا من نومى ، ووجدتنى «أنا نفسى» مرة أخرى راقدا فى فراشى . والان لا اعرف هل كنت انسانا رأى فى الحلم انه فراشة ، أم أنى الآن فراشة تحلم بأنها انسان ؟ ! ـ بين الانسان والفراشة حاجز ، وتخطى هذا الحاجز هو الذى يسمى بالتحول .»[٣] .

وبجانب هذه الحكاية الشهيرة نسج الخيال حكاية او أمثولة اخرى عن حكيم دعوته «هوى ـ تسو» وجعلته يرى فى المنام انه سمكة . والحق اننى عندما بدأت فى كتابة هذه المسرحية القصيرة لم اكن اتصور انها ستصبح سخرية من نوع «الفارس» ، أو انها ستكون نوعا من النقد الذاتى ! وربما كان أهم ما يستحق الالتفات فيها هو «التحول» الذى اكده حكماء الطاوية نحو الذات الحقيقية التى تتحد مع السماء والأرض والابدية والكل وتتخطى حدود التراب . وتحول الفلاسفة الى الاتحاد بمعاناة الفقراء المتعبين من أمثال المرأة الشابة التى تشقى لاطعام نفسها وولدها هو فى النهاية نوع من التصحيح لأحلام الفلاسفة ! ..

والمسرحية الثالثة «السيد والعبد» تقوم على نص مشهور من نصوص ادب الحكمة البابلية وهو «حوار السيد والعبد» . وقد التقيت بهذا النص لأول مرة في الفصل الذى كتبه عالم السومريات الاستاذ

---

(٣) وردت هذه الحكاية فى كتاب أقوال تشوانج ـ تزو وتشبيهاته التى اختارها وعقب عليها الفيلسوف مارتن بوبر ، فرانكفورت ، طبعة «انزيل» ، ١٩٧٦ ، ص ١٦ ، وطبعة مانسية ، زيوريخ ١٩٥١ ، ص ٢٧ .

توركيلد جاكوبسن فى الكتاب القيم «ما قبل الفلسفة» من ترجمة الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا[٤] ، ثم قرأته بعد ذلك فى عدة ترجمات كانت اهمها وادقها هى ترجمة الاستاذ و. ج . لامبرت فى كتابه عن «ادب الحكمة البابلية»[٥] . ومن المعروف انه وجد مع آلاف الالواح الطينية الأخرى فى مكتبة الملك الاشورى آشور بانيبال (حكم بين سنتى ٦٦٨ و ٦٢٧ ق . م) وانه قد دون على أرجح الأراء خلال الالف الأولى قبل الميلاد وفى العصر الكاسى أو الكاشى الذى استمر قرابة اربعة قرون (من حوالى ١٧٩٥ الى حوالى ١١٦٢ ق . م) وكان على وجه الاجمال عصر انحطاط سياسى واقتصادى فى ظل حكام اجانب لا حظ لهم من مجد حمورابى (من ١٧٩٢ الى ١٧٢٠ ق . م) الذى بلغت الحضارة البابلية فى عهده ذروة عظمتها وقوتها ..

كان أول ما جذبنى الى هذا النص هو الحس الدرامى الذى أجرى به الكاتب اوالشاعر المجهول حواره الذكى الساخر بين السيد البابلى الملول وعبده الصابر الذى تصورت ان الابتسامة لم تفارق شفتيه .. ولا شك ان الحوار يمكن ان يوحى بالتشاؤم القاتم والعدمية المطلقة ، وربما أشار من بعيد الى خلفية حضارية اصبح فيها الكل باطلا ، وتساوى الفعل وعدم الفعل ، وفقد كل شىء وقيمته مع انهيار القيم جميعا . ومع ذلك فقد ثرت بطبعى على هذا التفسير المتشائم ، وعبرت فى ختام المسرحية التى استندت فيها الى ذلك الحوار عن استحالة الحياة بغير امل ولا عمل . ولم يمنع هذا من استغلال النص الى آخر مدى ، على الرغم من التصرف فى ترتيب أجزائه واللجوء الى الحق

---

(٤) ما قبل الفلسفة ، الانسان فى مغامرته الفكرية الأولى ، تأليف الاساتذة هـ . فرانكفورته ، و هـ . أ . فرانكفورت ، جون أ . ولسون ، وتوركيلد جاكوبسن ، وترجمة الأستاذ جبرا ابراهيم جبرا ومراجعة الدكتور محمود الأمين ـ بغداد ، منشورات دار مكتبة الحياة ، طبعة سنة ١٩٦٠ .

(٥) و . ج . لامبرت ، ادب الحكمة البابلية ، اكسفورد ، كلاريندون ، طبعة ١٩٦٧ ، (مع الالواح الأصلية بالخط المسمارى فى مواجهة الترجمة الانجليزية) .

المشروع لأى كاتب فى تشكيل مادته بما لا يخرج بها عن هدفها وهيكلها الاصلى ..

والمسرحية الأخيرة وهى «رؤيا ننجال» ليست مسرحية بالمعنى التقليدى ولا غير التقليدى . ولا يرجع هذا لكونها «مناجاة» (مونولوج) تدور فى صدر ملكة «أور» التى تجترُّ رؤيا كابوسية .أرقت نومها وملأت نفسها رعبا من مصير مدينتها السومرية التى دمرت بالفعل على يد قبائل «الجوتيين» من البدو الغزاة ، وأنما يرجع قبل كل شىء الى أنها ضراعة أو ترتيلة طويلة لمجمع الآلهة السومريين والههم الأكبر «إنليل» تنتهى بانتفاضة الشعب المطحون والملكة المترددة المذعورة وعزمها على انقاذ «اور» من السقوط .. صحيح اننا نلتقى خلالها بألوان من الحوار ومشاهد تصور خراب المدينة على يد الشطار والانتهازيين والمتسلطين القدامى فى أرض سومر ، ولكنها تظل فى النهاية ضراعة ومناجاة وترتيلة تردد لحسن البكاء على تلك المدينة الماضية الحاضرة ، وهو لحن يختتم بالثورة على الفساد والمفسدين فيما يشبه انتفاضة الاطفال الأبرياء والعزل المحاصرين اليوم فى فلسطين ، بعد ان فاض بهم اليأس من كل شىء وأوشك بعضهم على انتظار برابره العصر كما فعلت ننجال وبعض سكان أور فى لحظة من لحظات الضعف التى لم تلبث ان تحولت الى زلزلة واعصار وطوفان ..

ولابد من القول باختصار إن أدب رثاء المدن المنكوبة قد عرف فى حضارة وادى الرافدين ، وسجل الشعراء والكتاب والمفكرون السومريون بكاءهم على المدن المدَّمرة مثل «أور»،«ونيبور» (نفر) وأكد (أجادة) فى أوقات المحن والهزائم والخراب . وأقدم نموذج له وجد مدونا على لوح طينى من مدينة «لجش» ويصف دمارها الفظيع على يد عدوتها القاسية مدينة (أوما) التى طالما اشتبك الصراع بينهما على الحدود .(٦) .

(٦).انظر فى ذلك الملحق رقم ٢٧ من كتاب (السومريون» لعالم السومريات الشهير صمويل نوح كريمر وترجمة الدكتور فيصل الوائلى ، وكذلك الكتاب البديع لنفس المؤلف عن ألواح سومر من ترجمة المرحوم الدكتور طه باقر .

وقد التزمت بالنصوص السومرية التى اطلعت عليها فى مصادر عديدة سبق أن ذكرت بعضها ولم أجد داعيا للخوض فى تفصيلات تاريخية وأثرية يمكن أن يرجع اليها القارىء بنفسه . ولذلك اكتفى فى هذا التمهيد بالاشارة الى استفادتى فى هذه الترتيلة المسرحية من نصوص اخرى مشهورة فى الأدبين السومرى والبابلى تؤكد كلها أن مشكلة الشرقى كانت ولم تزل هى مشكلة العدل ، وذلك مثل النص المعروف باسم أيوب البابلى «لدلول بيل نيميقى أو سأمجد رب الحكمة» ونص الحوار بين المعذب والصديق (وقد نقلتها للعربية ودرستها فى كتاب آخر أرجو أن يرى النور عن قريب) ، وذلك بجانب الاستفادة غير المباشرة من قصيدة الشاعر السكندرى اليونانى الأصل قسطنطينوس كفافيس (١٨٦٣ ـ ١٩٣٣) فى انتظار البرابرة[٧] .

* * * *

وأخيرا يبقى أن أدفع عن نفسى شبهات قد يقع فيها القارىء الذى افسد فطرته «شبه النقد وأشباه النقاد» الذين استفحل شرهم وزاد ازعاجهم فى السنوات الأخيرة . وأول هذه الشبهات أن يتصور احد أن هذه المسرحيات ـ كما سبق ان ذكرت ـ ليست سوى نسيج مصطنع من قراءات ونصوص متفرقة . واعتقد ان القارىء المتعاطف النقى الفطرة والاحساس سيرد بنفسه على امثال هذه التصورات عندما يجرب النص ويلمس صدقه . وعلى هذا القارىء اعتمد على الدوام به أثق واليه ألجأ من تجاهل النقد الزائف وجهله . ولست فى حاجة الى القول بأن عددا كبيرا من الحكايات والمواقف والشخصيات فى «القيصر الأصفر» وغيرها ليس لها أصل بالمرة فيما قرأت من نصوص ، وان اصلها ومنبعها فى خيالى وقلبى المهموم بواقعة المصرى والعربى الذى لم تعد أزماته خافية على أحد ..

---

(٧) من ترجمة الدكتور نعيم عطية فى كتابه مختارات من الشعر اليونانى الحديث ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٨٣ .

والشبهة الثانية التى يمكن أن يقع فيها الظن الحسن او السيء هى ان هذه النصوص - وخصوصا القيصر الأصفر - يمكن أن توحى بالحنين الى القديم او برغبة المؤلف فى «الرجوع الى الماضى» .. ولأن المجال يضيق عن دفع هذا الاتهام ، ولأن هذا التعبير الأخير يحمل تناقضه فى ذاته ، فإننى اكتفى باقتباس حكاية قصيرة مأثورة عن حكيم صينى هو هان - فى - تزو (من ٢٨٠ - ٢٣٣ ق . م) الذى يعدُّ أعظم حكماء مدرسة المشرعين فى الصين القديمة(٨) . فهو يقول صراحة إن الحكيم لا يصح ان يسعى لتقليد القدماء او السير على طريقهم او اقامة اى نموذج أو معيار ثابت يصلح لكل زمان ، لأن الحكيم الحقيقى هو الذى يعيش عصره ويعرفه ويصارع مشكلاته . ثم يروى هان - فى - تزو هذه الحكاية القصيرة التى تغنينى عن مناقشة المتشنجين من أبناء أمتنا ، كما تغنينى عن ترديد كلام المستنيرين من أبناء أمتنا كذلك الذين يقاومون تثبيت مطلق الماضى والقديم فى زمن يطالبنا بالتطور والتقدم الى المستقبل ..

«كان فلاح من منطقة سونج» «يحرث حقلا يقوم فى منتصفه جذع شجرة . وفى يوم من الأيام اندفع أرنب برى عبر الحقل واصطدم بجذع الشجرة فانكسر عنقه ومات . وترك الفلاح محراثه ووقف بالقرب من الشجرة ، على أقل أن يتمكن من الامساك بأرنب آخر بنفس الطريقة . غير أنه لم يحصل على هذا الأرنب أبدا ، ولم يجن من ذلك الا سخرية أهل سونج وضحكهم عليه» .. ويعلق الحكيم على هذه

---

(٨) المعروف عن هذه المدرسة انها اكدت حكم السلطة المطلقة والقوانين الرادعة معارضة بذلك اكبر مدرستين فى تاريخ الصين وهما الطاوية والكونفوشية . وقد بعثت مدرسة المشرعين حية فى الصين الشيوعية الحديثة فى محاولتها طمس الفلسفات القديمة واحلال قيم اخرى بديلة عن قيمها - راجع الجزء الأول من حكمة الصين للمرحوم الاستاذ فؤاد محمد شبل ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٧ ، وقاموس الفلسفات الاسيوية للاستاذ سانت الموناومان ، لندن ١٩٧٩ - وقد اعتمدت فى المشهد السابع من القيصر الأصفر على ما جاء فى كتابات هان - فى - تزو من اضطهاد الحكماء وتعذيبهم .

الحكاية بقوله : لو أراد أحد اليوم ان يحكم الشعب بنفس السياسة التى اتبعها الملوك القدماء لكان شأنه فى تصرفه هذا شأن الفلاح الذى راح ينتظر الأرنب البرى بجوار جذع الشجرة ..

وأخيرا فليست هذه المسرحيات آخر الأمر سوى محاولات وتجارب أضيفها - ورزقى على الله ! - الى تجارب ومحاولات سابقة وأقدمها الى القارىء المتعاطف البصير الذى لن يخذل الأخلاص والصدق أبدا ..

القاهرة فى شهر شوال ١٤٠٨ هـ يوليو ١٩٨٨ م

القيصر الأصفر

الشخصيـــات

- المعلم العجوز (لاو - تزو)
- الناسك الشاب (مين - كيى - وو)
- القيصر الأصفر
- الحارس الأول
- الحارس الثانى
- التابع (لو - شون - وانج)
- الرجل (موظف الجمرك وحارس الحدود)
- صبى
- نساء ورجال وشيوخ من اهل البلدة الصغيرة على حدود الصين

- ١ -

(قاعة يجلس فيها المعلم الصيني العجوز . المعلم مستغرق في تأملاته التي يوقظه منها الناسك الشاب ..)

النـــاســـك : (بعد ان ينحني ويركع على ركبتيه ويضع جرابه على الأرض) : معلمي ..

المعـــلـــم : (يرفع عينيه اليه ولا يتكلم)

النـــاســـك : معلمي .. لقد اردت أن أودعك ..

المعـــلـــم : (يتطلع اليه والى جرابه الملقى بجواره) : أنت ؟ حقا حقا .. هذا ما أراه ..

النـــاســـك : (يرفع صوته قليلا) جئت لاستاذنك قبل السفر ..

المعـــلـــم : تودع .. وتستأذن قبل السفر .. والى أين عزمت يا ولدى ؟ ..

النـــاســـك : عزمت .. رعتك السماء يامعلمي .. هذه هي الكلمة الصحيحة .. لقد توقعت ان تقولها بنفسك ..

المعـــلـــم : قلت الى اين عزمت ؟

النـــاســـك : الى العالم يا معلمي .. بعد شهور من السهر والتفكير قررت ان اخرج الى العالم ..

المعـــلـــم : العالم ؟ هو في كل مكان نفس العالم .. يمكنك ان تعرفه دون أن تغادر عتبة دارك .. يمكنك ان تراه دون أن تتخطى حدود قريتك .
(يمدُّ الكلمات فيما يشبه الغناء) :
العالم في كل مكان نفس العالم

وقديما عرف العالم
من لم يفتح بابه ..
ورأى الأرض .
وسلك دروب الفلك الأعلى
من لم ينظر من نافذته ..
فالعالم فى كل مكان هو نفس العالم ..

الناسك : كان هذا قديما يا معلمى .. اليوم تغير الزمن وتغير البشر ..

المعلم : الزمن تغير ؟ والبشر تغيروا ؟ هل اسمع هذا من تلميذى ؟

الناسك : (مندفعا) : نعم يا سيدى . نعم . لابد أن أقوله ولابد أن تسمعه ..

المعلم : (فى يأس) : تكلم فأنا منصت لك ..

الناسك : ان ما قلته هو كلام الحكماء القدماء . وما اخترت ان اخرج الى العالم الا لكى اسير على طريقهم ..

المعلم : ليتك تفعل هذا يا بنى . فطريق الحكماء القدماء هو طريق الحقيقة ..

الناسك : وهو الطريق الذى علمتنى أن أسير عليه ..

المعلم : انا يا ولدى ؟

الناسك : اجل .. اجل .. هل تذكر يوم قلت لى : عندما تحكم الدولة حكما عادلا ، فمن حقنا ان لا نشغل انفسنا بها .. اما اذا حكمت حكما ظالما ، فمن الواجب ان نزورها ..

المعلم : وهل فكرت فى عواقب الزيارة ؟

الناسك : (أشد اندفاعا) : نعم يا معلمى . وعلى استعداد أن أتحملها . ان المرضى يتزاحمون على باب الطبيب . والأنين يصم آذان القادرين على السماع . أريد أن اضع حكمتى موضع الاختبار . أريد أن أجرب فائدتها إنْ كان فيها فائدة ..

المعـــلـــم : هل قالت لك حكمتك ان تناطح الثور الهائج ؟ هل علمتك ان تلقي بنفسك فى فوهة البركان ؟

النـــاســـك : لقد صممت ان ارى كل شيء بنفسي . ان ألمس الجروح بيدى صممت ان اذهب الى هناك ..

المعـــلـــم : الى هناك .. الى اين تقصد يابنى ؟

النـــاســـك : الى مملكة «تسى» ..

المعـــلـــم : أهى التى استشرت فيها نار الظلم ؟

النـــاســـك : وتأكد لى مما سمعت ان القيصر الأصفر الذى يحكمها ظالم مستبد . أنه يتصرف وكأن الدولة لا قيمة لها ، ويفعل ما يشاء كأن الشعب لا وجود له . لهذا يتهاوى الناس كالاشجار الخاوية التى تضربها العاصفة . وتلقى الجثث فى كل مكان كأكوام الرماد المتبقى من الحريق . كالهشيم الذى تتزاحم عليه الطيور الجائعة . ان الشعب قد ضاقت به الحياة . والمملكة كأطلال بيت قديم عشش فيه العنكبوت وحطت عليه البوم والغربان ..

المعـــلـــم : وتريد أن تواجه المملكة والملك ..

النـــاســـك : وأعيدها الى الطريق ..

المعـــلـــم : تريد أن تعيدهما اليه قبل أن تعود انت اليه ؟ تريد أن تحققه فيهم قبل أن تتحقق به ؟ تريد أن تغير العالم قبل أن تتغير ؟ .

النـــاســـك : هذا هو الطريق الى التحقق والتغيير .. هذا هو الطريق الى الطريق ..

المعـــلـــم : الطريق الذى لم تجربه فى نفسك قبل ان تجربه فى غيرك ؟ الذى لم يغيرك قبل أن تسعى لتغيير سواك ؟ قل لى يا بنى ..

النـــاســـك : تفضل يا سيدى . أسمعنى نصائحك قبل الوداع ..

المعـــلـــم : أخشى ان تسمعها لآخر مرة . كيف ستواجه ذلك

الحاكم الطائش الطاغية ؟

النـــاســـك : كما واجه الحكماء القدماء أمثاله ..

المعـــلـــم : وكيف واجهوهم ؟

النـــاســـك : بالحكمة والفضيلة .. بالفطنة وحب البشرية .. بالصدق والأمانة والتواضع ..

المعـــلـــم : لن تجنى من هذا الزرع حبة واحدة ..

النـــاســـك : كيف يا معلمى ؟ ..

المعـــلـــم : سيكرهك الناس بسبب فضيلتك ، وسيتهمونك بالجنون بسبب حكمتك . سيحملونك ذنب الشر الذى جلبته عليهم طيبتك . آه يا ولدى ! وسيظلمونك ويعذبونك ويجلدونك ..

النـــاســـك : (مقاطعا) : الناس تفعل هذا ؟ الشعب ؟ لا .. لا .. لا يمكن ان يفعل الشعب هذا ..

المعـــلـــم : يفعله اصحاب النفوس الصغيرة لانهم يحسدونك على كبريائك . يفعله المتصارعون على الشهرة والمجد لانك تحتقر الشهرة والمجد .. يفعله الجلادون الذين يجدونك أمامهم بلا سوط فى يدك . وعندما تقف امام الناس لتعظهم وتهديهم سينفضون عنك قائلين : هذه طبلة جوفاء جديدة .. كالطبول التى طالما دقت آذاننا . نعم يا ولدى . لن تصل بهذه الطريقة الى قلوبهم . واذا سمعت نصيحتى قلت لك : لن تصل الا الى نهايتك ! ..

النـــاســـك : انى اسمعك يا معلمى .. ارجوك .. اكمل نصائحك ..

المعـــلـــم : نصائحى ؟ انى احوج اليها منك .. انما هى اسئلة اتمنى ان تفكر فيها قبل أن تعزم على سفرك ..

النـــاســـك : لقد عزمت ياسيدى . لكنى لن اتحرك من مكانى قبل ان تطرحها علىّ ..

المعـــلـــم : وهل ستفكر فيها ؟ هل تتذكرها يوما ؟ آه من تهور

الشباب ! آه من اغتراره بخلود الربيع والقوة ! هأنذا اسألك يا ولدى ..

الناسك : تفضل يا معلمى . اننى اسمعك ..

المعلم : قلت انك ستحاول ان تعيد ذلك القيصر الظالم الى الطريق .

الناسك : نعم نعم .. كما اعاد الحكماء القدماء امثاله اليه ..

المعلم : وكيف تأكدت من ظلمه ؟

الناسك : تأكدت يا معلمى . لا يمكن ان يكون كل من قابلتهم كاذبين . لقيت أفواجا من اللاجئين من مملكة تسى . تكلمت مع الفلاحين وقاطعى الأخشاب وصيادى السمك الفقراء . عرفت من الأطفال والنساء والعجائز ما لحق بالآباء والأزواج والابناء . حتى الأرض والسماء غاضبان عليه ..

المعلم : الأرض والسماء ؟ وكيف هذا ؟

الناسك : (يتمشى جيئة وذهابا) : منذ أن تولى القيصر الأصفر حكم المملكة والسحب تمر عليها دون أن تمطر . منذ أن جلي على عرش المملكة وأوراق الشجر تسقط قبل أن تذبل وتجف . منذ ان تسلط على المملكة وبريق الشمس يخفت ، وضوء القمر يزداد صفرة وشحوبا . ان مظهره يحارب مخبره . ووجدانه يلعن سلوكه ويتبرأ منه . كل شىء فى المملكة صار اصفر اصفر ..

المعلم : وكيف تطمع فى ان تهديه للطريق ؟ كيف تنتظر ان يستمع منك للحقيقة ؟

الناسك : كما قلت ياسيدى . سأقف امامه كما وقف الحكماء القدماء .. سأهتف به فى ثبات واتزان : ايها القيصر (لقد اضطرب نظام العالم . اختلت اسس الحياة واهتزت قواعد المملكة . وارادة السماء لا تنفذ ،

حيوانات الحقل تهرب مذعورة ، تطاردها الذئاب فى غيبة الراعى . الطيور تصرخ فى الليل ، تحوم مولولة فوق الأراضى المتشققة والوديان الذابلة ، فوق الحدائق الخاوية من الكروم والعشاق . أما أسراب الجراد فتزحف كالسحب السوداء . والجراد يلتهم ما كان من قبل يسمي شجرا أو عشبا أو خضرة ، ينشر الخراب على الأرض ، على كل ما يزحف فوقها أو يحلق او يمشي ..

المعـــلـــم : (مبتسما) : وستهتف بصوت عال : هذا هو ذنب الحكم .. هذا هو ذنب الحاكم ..

النـــاســـك : (فى حماس) : كما فعل الاجداد من الحكماء .. الحكماء الذين اتبع طريقهم واعتقد اننى خادم لهم ..

المعـــلـــم : جميل .. رائع ..

النـــاســـك : والفضل فيه لكم . لقد تعلمته منكم ..

المعـــلـــم : وتعلمت ايضا ان تكون خادما للأرض والسماء ..

النـــاســـك : بالطبع .. وللطريق الحق .. والابدية والوحدة والواحد يسرى فى الكل .. هل هناك اختلاف بين خدمة الاسلاف وخدمة الأرض والسماء ؟

المعـــلـــم : فى الأصل لا . ولكن فى هذه الحالة نعم ..

النـــاســـك : ارجوك .. فسر كلامك ..

المعـــلـــم : استمع اليّ .. سأفسره من ناحية الحاكم ..

النـــاســـك : القيصر الأصفر ؟

المعـــلـــم : نعم نعم . هذا الذى تقول انه صبغ كل شيء بلونه البغيض . ثم من ناحيتك انت ايضا يا ولدى ..

النـــاســـك : كل كلمة تقولها تزيد من تصميمى وعزمى ..

المعـــلـــم : تزيد من عزمك ؟ لا أدرى . أن هذا الحاكم الأصفر يستعرض الكمال امام الناس ويملؤه الغرور كما يملأ

القش كيسا منفوخا . هل نقول ان يخفى نقصه وضعفه وراء أبهته وقوته ؟ من الصعب ان نحكم على حقيقة أمثاله من مظهرهم . فهو يرفض ان يعارضه احد . ولذلك يستمتع بإحناء ظهور الآخرين . وهو يعلم انه فراغ وخواء من الداخل ، ولذلك يلذ له ان يفرغ من حوله ويجعلهم خواء لكي يطمئن ـ وقد لا يطمئن يا بنى حتى يرى امثالك تمزقهم الأغلال او تتدلى رءوسهم وألسنتهم من فوق المشانق ..

النـــاســـك : اكرر ما سبق ان قلت يا معلمى : انني على استعداد للتضحية ..

المعـــلـــم : (ضاحكا) : ولكنها تضحية بلا ثمن ! لقد اصطدمت بمظهره ولم تنفذ الى باطنه .

النـــاســـك : ماذا تقصد .

المعـــلـــم : هل تعرف السائس الذى يمدُّ يديه الى ظهور الخيل ليخلصها من الذباب والحشرات اللاسعة التى تلتصق بجلدها ؟ ربما يُفزعها فجأة فتثور ثورة عنيفة وتجرح نفسها وتجرحه ، وربما ترفسه رفسة مميتة .

النـــاســـك : مازلت على استعداد للموت .. المهم ان ينتبه الشعب ..

المعـــلـــم : الشعب ؟ هذا الوجه الهائل الغامض ابدا ؟ هل تظن انه سيشعر بك واذا شعر بك فهل تظن انه سيصدقك ؟

النـــاســـك : ولم لا ؟ مادمت أواجهه كما واجهه الحكماء القدماء . أننى اخدمهم واسير على طريقهم .

المعـــلـــم : ليتك تخدم الأرض والسماء قبل أن تخدمهم . فقد ساروا على طريق الأرض والسماء ..

النـــاســـك : وواجهوا الشعب وغيروه ..

المعـــــلــم : لم يواجهوه بالمواعظ وحدها .. لم يغيروه قبل ان يتغيروا ..

النـــاســـك : ولكننى سأواجه الشعب كما واجهوه .. بالفضيلة وحب البشرية ، بالثبات والاتزان ..

المعـــــلــم : هذا ما قلته من قبل . ولكنه لن يسمع الا كلمات . وسينفض عنك فى النهاية وهو يقول : مهرج جديد يبحث عن الشهرة والمجد ! ..

النـــاســـك : سأحاول أن أغيرهم فيغيروا ما حولهم . آه يا معلمى ! كل هذا الخراب والذبول والفساد ..

المعـــــلــم : هل تملك الطبول العالية الصوت ان تعيد للارض خصبها ، وللقلوب والاشجار ربيعها ، وللحياة ..

النـــاســـك : لن اتردد عما عزمت عليه ..

المعـــــلــم : انت مصمم اذاً ..

النـــاســـك : وما سمعته منك يزيدنى تصميما ..

المعـــــلــم : افعل ياولدى ما تشاء . لكنك ستكون مثل تلك الجرادة التى أرادت ان توقف العربة الكبيرة التى تزعجها وتزعج الناس فى الطريق . فردت أجنحتها واستلقت على أرض الشارع كى توقفها عن الحركة .. لكنها عجزت عن تحقيق هدفها لأنها اخطأت التقدير . ولهذا سحقتها العربة والخيل والسائق دون ان تغير شيئا ..

النـــاســـك : سيدى .. لا يمكن أن أقف ساكنا والشعب هناك يتألم .. لا يمكن أن اعكف على تعلم الحكمة والناس فى مملكة «تسى» يجوعون ويعذبون ويهانون .. لا يمكن ان أصبر والضحايا المظلومون تتدلى جثثهم فى الساحات والميادين بحجة إقامة العدل والقوانين . اختل نظام الكون . اضطربت قواعد الدولة . كيف انتظر ولا احاول التغيير ؟

المعـــــلــم : قبل ان تغير نفسك ؟ !

النـــاســـك : لقد جمعت من حكمة القدماء ما يكفى ..

المعـــــلــم : وهل تأكدت من إنك أصبحت حكيما ؟ هل تتوقع ان

يربى غيره من لم يربِّ نفسه ؟

الناسك : (يحمل جرابه على ظهره) : سأذهب يا معلمى ..

المعلم : لا أستطيع ان أمنعك ..

الناسك : أعلم أنك تخشى علىَّ . لكننى تعلمت منك ما يعيننى على السير على الطريق .. تعلمت منك ما يساعدنى على الحياة اكثر من هذا الزاد فى جرابى لابد يا معلمى . لابد ..

المعلم : الوداع يا ولدى .. تذكر ما قلته لك اليوم ..

الناسك : وما تعلمته منك بالامس وقبل الأمس ..
(يتقدم منه .. يعانقه ويبكى) .

المعلم : لا تبك يا ولدى . انما اردت ان احذرك ..

الناسك : وهل كنت تتردد عن محاولة تغيير العالم والناس ؟

المعلم : (مبتسما يربت على كتفيه) : تغيير العالم والناس ؟ ! مثلنا يغير نفسه اولا . يحاول ان يكون كاملا قبل أن يدعو غيره الى الكمال . واذا اضاء مصباحه فربما يستنير به العالم ، ربما يستنير الشعب ..

الناسك : أن أغير نفسى اولا .. أن أصبح كاملا قبل دعوة غيرى للكمال .. ولكن هذا هو الذى أريد ..

المعلم : لا تتعجل ياولدى ..

الناسك : (فى حماس) : وهذه هى معالم الطريق .. لهذا اسير على الطريق .

المعلم : المهم ان تكون انت الطريق ..

الناسك : وهل يمكن ان اكونه بغير ان أسير عليه ؟ .. هل يمكن أن أتغير بغير ان أغيِّر ؟ الوداع يامعلمى .. سأذهب الى الشعب .. سأواجه القيصر الاصفر ..الوداع ..الوداع .. الوداع (يسرع خارجا) ..

المعلم : الوداع .. (ثم لنفسه بعد أن يذهب)
كم أخاف عليك يا ولدى . !

- ٢ -

(ساحة واسعة تبدو وأعواد المشانق من بعيد ، تتدلى منها جثث المحكوم عليهم بالاعدام . حارسان ليليان يغفوان بالقرب منها . يدخل الناسك الشاب من جانب المسرح ، يرى المشانق فيهتف ..) .

الناسك : لابد اننى وصلت الى مملكة القيصر الأصفر .. وصلت بعد البحث الطويل وعناء الصعود على قمم الجبال والهبوط فى السهول والوديان ، وهذه جثث المظلومين تواجهنى . والغروب يؤذن بالليل الموحش البارد . ترى كم من الجثث يتمدد الآن فى الأكواخ والبيوت وفوق الحقول الخربة ؟ كم من الاشباح الجائعة يهيم فى الطرقات أو يستريح تحت الشجر الذابل او يقعى تحت جدار متهدم ؟

هذه هى المملكة التى مرت عليها السحب دون ان تمطر ، وسقطت فيها اوراق الشجر قبل ان تجف ، وشحب وجه الشمس والقمر من الحزن والاكتئاب .. ايتها الجثث المسكينة ! ها أنت تتدلين من الحبال ولا تعرفين . لا تعرفين أن قوة السماء قد اختلت نواميسها ، وأن قوة الأرض قد قيدت فى الأغلال لا تعرفين أن عجلة الحياة قد خرجت عن محورها ، أن الفصول الأربعة قد اضطربت دورتها ، ان عناصر العالم الستة تتصادم وتتصارع كالثيران المعصوبة

الأعين او قطعان الماشية العمياء .. واهاً لى ! ماذا أفعل هل استطيع ان اصلح نواميس الأرض والسماء ، أن أواجه جيوش الدود والافاعى والغربان التى تنهش جسد المملكة ؟ أن أوقف زحف النمل والسوس والعقارب والعناكب ؟ أن أعيد البلابل الى الاشجار ، والقطيع الى الحظيرة ، والراعى .. اين هو هذا الراعى المسئول عن كل شىء ؟ اين هو الراعى ! اين الراعى غير المسئول ! ! (تفلت منه صيحة تجعل أحد الحارسين يهز رأسه ويفرك عينيه . الناسك لا يراهما ويحث خطاه نحو الجثث المعلقة) ايها الابرياء المساكين ! اننى أصرخ للسماء واشكو اليها حظكم . اريد ان اصيح بملء صوتى : ايها الرجال ! ايها الرجال ! انتشر الخراب فى الأرض فكنتم أول ضحاياه . شاعت حفر الاضطراب فى المملكة فكنتم اول من سقط فيها . اريد ان انزلكم من على المشانق ، أن اوقفكم على اقدامكم ، ان اخلع ملابس النساك واغطى بها عريكم . اريد ان اجركم معى على الطريق وازحف بكم الى القرى والبلاد وأقف معكم على بوابات المدن وأطرق ابواب البيوت وانا اصرخ : انتبهوا ايها النائمون ! اسمعوا ايها الصم ! هل كان هؤلاء الرجال مذنبين ؟ هل كانوا هم اللصوص الحقيقيين ؟ هل كانوا هم القتلة الحقيقيين ؟ (يتقدم منه الحارس فى خوف ويشد ثوبه فلا ينتبه اليه) .

الحـــــــارس : أنت .. أنت ..

النـــاســـك : هل انتم اللصوص الحقيقيون ؟ هل انتم القتلة الحقيقيون ؟

الحـــــــارس : اذا لم يكونوا هم اللصوص والقتلة فمن هم ؟
النـــاســـك : (مواصلا هتافه) : لا .. لا .. لا يمكن ان يكونوا كذلك .. انطقوا .. تكلموا ..
الحـــــــارس : انا الذى اتكلم .. الا تسمعنى ؟
النـــاســـك : (مستمرا فى انفعاله) : تكلموا وقولوا للجميع . لقد تركوا اللصوص الكبار وشنقونا . انحنوا للقتلة احتراما وأعدموا المقتولين ..
الحـــــــارس : (يشده من يده) : حاذر مما تقول !
النـــاســـك : (ينفض يده منه) : دعنى .. دعنى ..
الحـــــــارس : لكى تشنق بجانبهم يا مجنون ؟ ثم أن صوتك مرتفع وسينبه زميلى هناك ..
النـــاســـك : زميلك .. وأنت .. من أنتما ؟
الحـــــــارس : قل لى أولا من أنت ؟
النـــاســـك : انا الذى سمع بما يحدث فى مملكة تسى فجاء على الفور ..
الحـــــــارس : لتتدلى رأسك بجوار هؤلاء ؟
النـــاســـك : (صائحا) : لأرفع صوتى للسماء . لأعلن للشعب كله .. ليس هؤلاء هم القتلة الحقيقيين ! ليس هؤلاء هم اللصوص الحقيقيين !
الحـــــــارس : أيا كان رأيك فهم الآن مشنوقون ..
النـــاســـك : ولهذا سأرفع صوتى للسماء ، سأعلن للشعب ، سأقول لكل عابر سبيل ..
الحـــــــارس : اعلن وقل ما تشاء .. لكن أرجوك . لا ترفع صوتك .
الحارس الثانى : (يتجه نحوهما وهو يغالب النوم) : ما هذا ! من هذا ؟
حـــــارس اول : أرأيت ؟ .. لقد جنيت عليهم وعلىَّ وعلى نفسك ..
النـــاســـك : (مستمرا كأن عينيه لم تقع عليهما) : سأقول بأعلى صوتى : هؤلاء هم الضحايا ..

حـــــارس ثان : هؤلاء .. ضحايا ؟ ! (ينظر لزميله ويشير الى رأسه باصبعه) .

حــــــارس اول : ونحن ؟ .. ماذا يسمينا ؟

النــــاســــك : أنتم ايضا ضحايا ..

الحــــارســـان : (معا) : نحن .. ضحايا ؟

النــــاســــك : اجل .. اجل .. سنوا القواعد والقوانين ، فكثر عدد المجرمين . وضعوا الأوامر والنواهى ، فكثر عدد السجون والحراس . لهجت ألسنتهم بالشرف والعار ، فنشأ الثأر والغدر . فتحوا الأعين على التملك والثراء ، فبدأ الشجار والنزاع . أغروا الناس بالترف والرخاء ، فسلبوهم الراحة والأمن . ثرثروا عن الخير والصدق والفضيلة فأمتلأت الشوارع والاسواق والبيوت بالرذيلة والكذب والفُجْر والغدر ..

حــــــارس اول : وهؤلاء ؟

النــــاســــك : ضحايا .. ضحايا ..

حــــــارس ثان : ونحن ؟

النــــاســــك : قلت لك .. ضحايا .. ضحايا .. (يبكى بصوت عال . يلتفت الحارسان لبعضهما . يقتربان منه ويربتان على ظهره وكتفيه . ينهض فجأة وينطلق الى المشنوقين) .

النــــاســــك : ألا تصدقان ؟ الم يقولوا الحقيقة لكما ؟ ألم يصرخوا فى سمعكم : نحنُ ضحايا مظلومون . نحن ضحايا مظلومون ؟ ! (يقترب من الجثث واحدة بعد الأخرى) انت ايها الشيخ ! كلفوك ان تحمل حملا ثقيلا . وعندما عجزت علقوك من رقبتك . وانت ايها الشاب النحيل . اعطوك سيفا صدئا وطالبوك بأن تبارز العدو .. وعندما انهزمت شدوا الحبل على عنقك . وانت ايها السقيم العليل .. طالبوك بالمحصول

الوفير ، وعندما بخلت الأرض حاكموك وأدانوك ولفوا رأسك فى العصابة السوداء . وانت .. وانت ..

الحـــارســـان : (معا) : وأنت ؟ ألا تخاف ..

النـــاســـك : انا الذى لا يخاف ان يقول : هذا هو ذنب الحكم .

الحـــارســـان : (معا) : الحكم ؟

النـــاســـك : والحاكم أيضا ، كان الحكام القدماء يرجعون الخير للشعب . أما الشر فيحاسبون أنفسهم عليه . كانوا ينسبون النجاح للشعب ، أما الفشل فيحملون وزره على اكتافهم ، كانوا يقولون على الدوام : العدل والنفع منه ، والظلم والضرر منا ونحن المسئولون عن اصلاحه ، لكن حكام هذه الايام ..

حـــارس اول : حكام هذه الأيام ؟ .. (يتلفت حوله) .

حـــارس ثان : (لزميله) : هل قال شيئا عن الحكام ؟

النـــاســـك : نعم حكام هذه الايام ..

الحـــارســـان : (معا) نتوسل اليك .. الاسلم ان تتكلم عن المحكومين ..

النـــاســـك : نعم .. نعم .. سأتكلم عن المحكومين عندما يحسون ان الاعباء فوق طاقتهم يلجأون الى الغش . عندما تخونهم قواهم يلجأون الى التحايل وعندما يقصر علمهم يلجأون الى الخداع . وعندما تعجز اموالهم واملاكهم عن الوفاء بالضرائب والديون يلجأون الى السرقة . كيف يمكن ان يكونوا صادقين حيث تنتشر الكذبة الكبيرة ؟ .. وكيف يتعلمون الامانة ومعلمهم خائن ؟ ..

الحـــارســـان : (معا) معلمهم خائن ؟

النـــاســـك : ألم تسمعا من يقول :

كلما زاد عدد القيود والحدود فى المملكة
زاد فقر الشعب ،

وكلما زاد عدد الاسلحة
عم الاضطراب فى البلاد ،
وكلما كثرت القوانين والتعليمات
كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق !

حـــارس : (يتسلل خفية) : ياللفظاعة ! ومن المسئول عن هذا ؟ !

النـــاســك : اسمعوا زميلكم الذى يسأل : من المسئول عن هذا ؟

الحـــارسان : (ينظران الى الحارس الجديد . يلتفتان لبعضهما ويسكتان) .

النـــاســك : ألم تعرف انت ايضا ؟ .

الحـــارس ٣ : ليتك تنير ظلامى ..

النـــاســك : (مندفعا) :

اذا كان الشعب يجوع
فلأن حكامه يلتهمون الضرائب التى تفوق طاقته ،
لهذا يجوع الشعب ،
اذا كان الشعب لا يحترم الموت احتراما كافيا ،
فلأنه ينساق وراء البذخ والترف
ولهذا لا يحترم الموت احتراما كافيا .

الحـــارس ٣ : الحكام يفعلون كل هذا ؟ !

النـــاســك : بل يفعله الحاكم وحده ..

الحـــارس ٣ : الحاكم أم الملك أم القيصر ؟

النـــاســك : وما الفرق ؟ لقد تكلمت عن ظلمه وهاك ما أقوله عن كذبه :

ان الحاكم ينافق الناس ،
يوافقهم على كل شىء ،
يسير كالاعمى وراءهم ،
هذا ما اسميه سرقة الشعب .
انه يتظاهر بالثناء عليهم

لكى يخفى احتقاره لهم ،
يتملقهم لكى يسهل عليه ان يقودهم الى الهاوية
ويغرقهم فى بحار الكوارث ،
لهذا فسد الحكم وفسد الحاكم .

الحـــــارس ٣ : وفسد الملك والمملكة ؟ ! وفسد القيصر ...

النـــاســــك : من يسرق حافظة نقود يعاقب ويشنق ، ومن يسرق
دولة وشعبا
يتوج على العرش

الحـــــارس ٣ : يتوج عليه ام يسرقه ؟

النـــاســــك : وليته يكتفى بهذا ؟

الحـــــارس ٣ : هل يسرق شيئا آخر ؟ ..

النـــاســــك : بل يفسد كل شىء . الشعب والأرض والسماء .
والذى كان ينتظر منه أن يعيد الناس الى الطريق
أصبح يبعدهم عنه . الذى يفترض ان يفتح لهم باب
الابدية صار يدفعهم الى باب الموت . الذى كانت
مهمته ان يردهم الى البراءة الاصلية حولهم الى
لصوص وقتلة ..

الحـــــارس ٣ : ثم عاقبهم وعلقهم على المشانق ؟ ..

النـــاســــك : لو كان هو الحاكم العادل ما حدث شىء من هذا . ولو
كان هو الملك الكامل الذى اتحد مع الأرض والسماء
ما تمت هذه الجريمة ..

الحـــــارس ٣ : اتحد مع الأرض والسماء ؟

النـــاســــك : والتف حوله الشعب كما يلتف الاطفال حول أمهم
التى ترضعهم ..

الحـــــارس ٣ : وهؤلاء المشنوقون ؟ من هم فى رأيك ..

النـــاســــك : رأيى ؟ ألا تستطيع ان ترى بنفسك ؟ ألست أحد
الحراس عليهم ؟ ألم تعلم انهم ضحايا بؤساء ؟ .

الحـــــارس ٣ : ضحايا الحاكم الظالم والملك الفاسد والقيصر

والأصفر ؟

النـــاســـك : ومن غيره ؟

الحـــارس ٣ : (وهو يرفع القناع عن وجهه) : تقصد انهم ضحاياى ؟

الحـــارســان : (معا) القيصر الأصفر ! القيصر الأصفر !

القـــيصــــر : هل جئت الى هنا لتضع رأسى فى حبل المشنقة ؟

الحـــارســان : (معا) : مولانا القيصر !
(ينحنيان أمامه بشدة)

النـــاســـك : (يتقدم منه ويواجهه) : بل لأردك الى الوحدة مع السماء والأرض .. مع الأبدية .. مع الكل .. لأردك الى الطريق .. لأجعل منك او من غيرك الحاكم الكامل ..

القـــيصــــر : منى او من غيرى ؟ سمعتم يا حراس ؟

الحـــارســان : مولانا القيصر (ينحنيان) .

القـــيصــــر : سمعتم ؟ يريد ان يجعل منى الحاكم الكامل ..

النـــاســـك : حقا .. هذا هو ما أريد .

القـــيصــــر : هلا جعلتما منه اولا المواطن الكامل ؟ ..

الحـــارســان : (يترددان) .

القـــيصــــر : (صارخا) خذاه .. تعرفان الطريق الى هناك .. ثم عودا به الىَّ .. لأتعلم منه الكمال .. هيا .. هيا .. هيا . (يفهمان . يأخذانه وينصرفان) .

* * * *

- ٣ -

(القيصر الأصفر يقطع المكان ذهابا وجيئة ـ يبدو الغضب على ملامح وجهه ، ويثور الشرر من عينيه ، ويخيل لمن يراه أنه وحش لازالت دماء فريسته تصبغ شفتيه . تصدر عنه ايماءات وحركات تدل على الهياج واليأس فى آن واحد . يكلم نفسه قائلا) :

القيصر الأصفر : شئ غريب . شىء نادر . انسان لم أر مثله ابدا . لم اعرف مثله ابدا . هل يمكن ان يتحمل هذا التعذيب ولا يشكو ؟ هل يمكن ان تقطع السيوف والنصال أصابه قدميه ولا يتأوه ؟ هل يمكن أن يسلخ جلد وجهه ولا يتوجع ؟ لقد كان يبتسم . نعم رأيته بنفسى من وراء ستار هذا الغريب الذى يكاد أن يصيبنى بالجنون . لو كان صخرة لتألم . ولو كان جثة او حشرة لتحركت ودافعت عن نفسها . أريد ان أعرف حقيقته . لابد أنه رجل خطر .. لابد أن أعرف حقيقته ! ..

(يدخل الناسك الشاب مغطى الوجه ، قدماه ملفوفتان فى قماش ابيض ، تتحركان بصعوبة كطائر عجوز قيدت أطرافه بالاغلال ، يصدر عنهما صليل مع كل خطوة . يتبعه حارسان ويسوقه حارس ثالث) .

أحد الحراس : هذا هو المجرم يا مولاى ..

القيصر الأصفر : (ينظر اليه من بعيد ويقول لنفسه) : ايتها السماء !

صار وجهه كالفحمة . قطعت أصابع قدميه فصار أعجز من رضيع . ماذا سيفعل ؟ ماذا سيقول ؟ كيف واتته القدرة ؟ .. (ثم فجأة) انصرفوا . لقد كسبتم رضاء الدولة والقانون والاجداد . انصرفوا .. (ينصرف الحارسان ويتردد الثالث الذى يقود السجين) لا .. لا .. انتظر أنت وساعده على الجلوس . لماذا تحجب وجهه ؟ ألم تؤد واجبك كما ينبغى ؟

الحارس : بلى يا مولاى . انظر ..

(يكشف الغطاء عن وجهه فتبدو بشاعته . يسارع القيصر صائحا ..)

القيصر : لا لا لا .. اننى لا أشك فى أعوانى .. أنزل الغطاء عليه ..

الحارس : (يساعد الناسك على الجلوس .. ينحنى للقيصر) .

القيصر : قف أنت هناك . بعيدا فى هذا الركن . او انصرف انت . انصرف سأدعوك اذا احتجت اليك .

الحارس : (ينحنى بشدة وينصرف) .

القيصر : (يدور حول الناسك والعرق والكلام يتصببان منه دون ان يعرف ماذايفعل أو يقول : لقد تم كل شىء .. تماما كما حدده القانون ، وكذلك العرف والتقاليد . لا تظن اننى شامت فيك . لا تظن ..

الناسك : (يلزم الصمت . ينظر فى الفراغ)

القيصر : هذا جزاء كل من يقترف ذنبا خطيرا . جزاء كل طائش معتد على المملكة والقانون وأرواح الاجداد . نعم .. نعم .. ان ارواح الأجداد غاضبة عليك . وهى التى حددت نوع العقاب . تماما كما فعل أجدادى بمن تجرأ عليهم . أجدادى وأجداد أجدادى ..

الناسك : (صامت يتطلع اليه من وراء الغطاء الشفاف) .

القيصـــر : لا تتصور آن بينى وبينك ثأرا . اننى لا اعرفك ولا اعرف من اين اتيت . ولست انا الذى آمر بتعذيبك . بل الكتب القديمة التى تضم الشرائع،القديمة . ولو تسامحت معك لاهتز القانـون وثارت ارواح الاجداد ..

النـاسـك : (يواصل صمته كأنه تمثال) .

القيصـــر : لابد أنك قرأت الكتب القديمة . يبدو هذا على وجهك . معذرة . أقصد وجهك الذى كنت تحمله قبل أن أؤدبك . معذرة . قبل ان يؤدبك القانون والأرواح والشرائع المقدسة ..

النـاسـك : (لايرد .. يبدو كأنه ابتسم) .

القيصـــر : هل ابتسمت ؟ لا ادرى . يخيل الىّ اننى لمحتك تبتسم . لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟ لقد تحدثت اليك حديث الاصدقاء . تناسيت اننى قيصر يكلم عبده . لكنك لا تحرك شفتيك . وعندما حركتهما بدا لى انك تبتسم . هل ابتسمت حقا ؟ هل تسخر بى ؟

النـاسـك : (يلازم صمته . تتسع ابتسامته) .

القيصـــر : إذاً فأنت تريد ان أزيد الجرعة . يمكننى أن آمر بحزٍّ رقبتك . يمكننى أن أعلقك على المشنقة كأولئك الذين رحت تصرخ بهم وتلعننى وتلعن حكمى . حاذر . لا تغترَّ بتسامحى . لا تغترَّ بهذا الشرف الذى أوليتك اياه عندما طلبت ان تحضر الىّ ..

النـاسـك : (يتطلع اليه ويتابع حركاته . يبدو ان ابتسامته اتسعت عما كانت عليه فارتفع صوت القيصر) .

القيصـــر : كان من الممكن ان اصدر الامر بشنقك او تمزيق جسدك أو القائك فى البئر . ان العقاب الذى نفذ فيك هو أهون عقاب فى المملكة . ومع ذلك، تبتسم

كما كنت تفعل وهم ينفذون العقاب .

الناســـك : بل كنت أضحك ..

القيــصــــر : تضحك ؟ ! وهم ينتزعـون جلدك ويقطعـون جسدك ؟ ..

الناســـك : نعم .. نعم .. كنت اضحك ..

القيــصــــر : لا اصدق .. لا اصدق .. هل لى ان اسألك لماذا ؟

الناســـك : كنت دفنت جسدى بنفسى ..

القيــصــــر : ليتنى افهم ما تقول . ولكن الناس تبكى عند دفن الموتى .

الناســـك : وعندما يدفنون انفسهم بانفسهم يضحكون ..

القيــصــــر : ما معنى هذا ؟

الناســـك : معناه اننى حلقت وراء حدود التراب ..

القيــصــــر : أوضح ! أوضح !

الناســـك : عندما شعرت أخطو على الهواء ولا أمشي ، عندما ابصرتُ جثتى التى تخلفت تحتى ، تذكرتُ ما قاله معلمى ..

القيــصــــر : وماذا قال معلمك حتى يضحكك ؟

الناســـك : دخلت عليه مرة فوجدته ممددا فى سكون . كان يتطلع الى السماء ، ويتنفس بعمق كالرضيع النائم ، ويبدو بعيدا بعيدا كأن جسده وروحه قد انفصلا عنه . هتفت به : ماذا جرى لك يا معلمى حتى بدا جسدك كأنه شجرة ذابلة وبدت روحك كأنها رماد ميت . ان الرجل الممدد امامى ليس هو المعلم الذى اعرفه . تكلم وقال : «حقا ما قلت . لقد دفنت اليوم نفسى بنفسى» . قلت له : لم افهم ياسيدى .. قال : أَلَمْ تتذكر ما قلت لك ذات يوم .. سألت وماذا قلت ؟
قال : يوم سمعتنى اغنى :
عطل جسدك

حرر نفسك ،
أطلق عقلك من قيده
كن عدما وفراغا
لا تفعل شيئا
عانق كل الاشياء
توحد معها
وستزهر كل الاشياء
وترجع لطبيعتها الأولى
لبراءتها الاصلية .

ألححت عليه بالسؤال : ولكنك كنت تبتسم يامعلمي . معذرة . فلم أر في حياتي جثة تبتسم .. ضحك معلمي طويلا ثم قال : بل كنت اضحك ياولدي . كنت اضحك

سـألـته : ولماذا يا سيدى ؟

قـال : لانني تذكرت المعلم «تسي ـ هوى» عندما وضعوه على عجلة التعذيب . بدأوا يسنون السيوف والنصال قبل ان يشرعوا فى قطع أوصاله فراح يبتسم . تعجب القيصر الأصفر الذى كان يراقب التعذيب والجلادين فاقترب منه وسأله : انهم يهيئون ادوات التعذيب .. ومع ذلك تبتسم ؟ قال له : لقد دفنت جسدى ايها القيصر . تخليت عنه وها هو الآن هناك شجرة ذابلة أو رماد ميت . وعندما يبدأون في قطع فروعه ويحرقونها ويذرون رمادها الميت لن أنشغل به ..

قـال القيصر : وماذا يشغلك اذاً ؟

قـال تسي هـوى : يشغلني الآن شيء واحد : أن أبقى على روحي . أن أصونها فلا يمسها أحد .

وعندما ارتفع صليل السيوف والنصال والسكاكين

وبدأ الجلادون فى عملهم استغرق فى الضحك
فثار القيصر الأصفر القديم كما ثرت الآن ..
القيـصـــــر : لقد تعجبت ولم أثر . ولكن ماذا فعل ذلك القيصر ؟
النـــاســـك : اقترب منه فى ذروة غضبه وسأل : لماذا تضحك ؟
فقال له تسي - هوى : لانى أسمع موسيقى ..
ذهل القيصر وصاح : تسمع موسيقى ؟ !
قال تسي هوى بهدوء : ربما تكون قد سمعت موسيقى البشر لكنك لم
تسمع موسيقى الأرض .
ربما تكون قد سمعت موسيقى الأرض
لكنك لم تسمع موسيقى السماء
قال القيصر ساخرا : انا لا اسمع الا موسيقى السيوف والنصال .
قال تسي - هوى : لانك لم تتخل عن جسدك .
ساله القيصر : وأنت ؟ هل تخليت عنه ؟
كان الجلاد يقطع ويقطع والمعلم العجوز يغنى :
جسدى ليس بجسدى
وحياتى ليست بحياتى
جسدى ليس بجسدى
أوقف القيصر الجلاد وسأله : ان لم يكن هو جسدك ، جسد من اذاً ؟
قال تسي - هوى : جسدك ليس بجسدك
انه الصورة التى صنعتها لك السماء والأرض
وحياتك ليست بحياتك ، أنها التجانس الذى
نسجته السماء والأرض
اولادك ليسوا اولادك
فالسماء والأرض قد تجددوا فيك ..
تتحرك ، لا تدرى ماذا يدفعك على الحركة
تسكن ، لا تعرف ماذا يحملك على السكون
إنها قوة الحياة تعمل عملها فيك
انها قوة الطريق الذى يملكك ولا تملكه
القيـصـــــر : لهذا ابتسمت وضحكت عندما أخذوا يقطعون

أعضاءك ويحرقونها ويذرونها كالرماد

النـــاســـك : لأني سمعت الموسيقى ..

القيـصـــر : الموسيقى ؟ والشفرات الحادة تحز اصابع قدمك ؟ والجلاد الرسمى ..

النـــاســـك : والجزار الرسمى يسقى شفرة السكين بالدم ويحركها فى جرحى الغائر . يحركها حركة لطيفة ناعمة محسوبة . كما يمر العازف بريشته على وتر القيثارة ..

القيـصـــر : ألا تصرخ ؟ ألا تتأوه ؟ ألا تثور ؟ !

النـــاســـك : هل يستطيع سيفه ان يحتز أعناق النجوم ؟
هل يمكن نصله ان يطعن البدر ؟
كان جدى جثة بين يديه
ويده تتحرك كالعازف الماهر فيبتسم
الا تزيدنى ان ابتسم لرجل يتقن عمله
ويشعر بالرضا عن نفسه وفنه ؟
الا تشعر ان الجزار يمكن أن يكون موسيقيا على طريقته ؟ ..

القيـصـــر : حتى عندما بدأ ينزع جلد وجهك ؟

النـــاســـك : تقصد عندما نزعوا جلد الطبلة الجوفاء ؟

القيـصـــر : ماذا تقول ؟

النـــاســـك : لا تندهش . هذا هو قول معلمى العجوز ..

القيـصـــر : ومتى قال هذا ؟

النـــاســـك : عندما ذهبت اليه لاودعه قبل الرحيل . كشفت له عن نيتى . صارحته بعزمى على السفر الى العالم لتغييره ..

القيـصـــر : كنت تريد ان تغير العالم ؟

النـــاســـك : وأردت ان أبدأ بمملكتك .. كنت قد سمعت من اللاجئين الذين هربوا منها الى قريتنا عن الظلم

الذى لحق بالشعب .. عن الحقول التى لم تعد تخضر ، والسحب التى لم تعد تمطر ، والجوع الذى يجتاح البيوت والأكواخ كالوباء . عن القوانين التى تزداد فيزيد عدد اللصوص . وعن اللصوص الصغار الذين يشنقون ..

القيصر : (ساخرا) : بينما يتربع الكبير على العرش ..

الناسك : نعم . نعم . قلت هذا وسمعته بأذنيك . ألم يخطر ببالك أنك تسمع طبلة جوفاء ؟

القيصر : خطر ببالى انك مجنون أو ثائر خطير ..

الناسك : طبلة .. طبلة جوفاء .. هذا ما قاله لى معلمى فلم اسمع نصيحته . ولو سمعنى الشعب لقال ما قاله لى : مهرج جديد يضرب على طبلة جديدة .

القيصر : ولماذا فعلت هذا ؟

الناسك : لاننى أردت أن أغير العالم قبل أن أغير نفسى . حاولت أن أتابع طريق الحكماء قبل أن أسير على الطريق . لهذا قطعت أصابع قدمىَّ كما ترى ، وصار وجهى كالفحمة انظر .. (يرفع الغطاء عن وجهه ويبتسم)

القيصر : (يبتعد عنه ولا ينظر فى وجهه) : تأكد اننى لا أشمت فيك . كان هذا سيحدث لك أو لغيرك . انه القانون ..

الناسك : وشريعة الاجداد . والعرف والتقاليد .. تأكد ايضا اننى لا ألومك .. اننى اشكرك على مافعلت ..

القيصر : تشكرنى ؟ .. بعد ان أمرت بقطع اصابع قدميك ؟ .. بعد ان شوهت وجهك ؟ ! ..

الناسك : حتى تفحم . ليكن هذا . انها عدالة السماء . ثم ان ان احدا لم يهتم به او ينظر اليه ..

القيصر : تقول لم ينظر اليه ؟ حتى زوجتك .. حبيبتك ؟ ..

الناسك : الحكيم وحيد .. ثم ان احدا لم يحبنى ..

القيصر : تكلم .. تكلم .. اريد ان اعرفك ..
الناسك : يكفى ان تنظر الىَّ .. لقد صنعت فىَّ معروفا .
القيصر : ارجوك . لا تشكرنى على شىء لا أطيقه ..
الناسك : بل اشكرك الى آخر نفس فى .. انك لم تنزع جلدى .
لقد نزعت حكمتى الزائفة . أعدت الىَّ وجه الطفل ..
القيصر : تقول وجه الطفل ؟ هذا ؟ (يقترب منه .. لا يجرؤ على كشف الغطاء .)
الناسك : على الأقل قلبه وروحه ..
القيصر : من انت ؟ اريد ان اعرفك على حقيقتك .. اريد ان تفتح لى قلبك هذا .. قلب الطفل ..
الناسك : وماذا تستفيد من حياة رجل مثلى .. رجل تتفرج عليه وهو كالطائر الممسوخ الذى يتقلب فى قفصك ..
القيصر : ارجوك . لست فى قفص ولا سجن . انت فى قصرى . فى ضيافتى .. تكلم .. تكلم ..
الناسك : (بعد فترة صمت) : ولدت كالاف من يولدون .. وعندما فتحت عينى ، عندما بدأت فتحاتى الست فى استقبال العالم رأيت نفسى أعيش فى بيت رجل مهدم فقير . كنت أسميه أبى فأصبحت أناديه ياجدى . وحكى لى الجد عندما كبرت عما لم يكن من الممكن ان اسمعه او اعيه . عرفت ان ابى ذبحه احد الغزاة من الرعاة الذين انحدروا كالسيل على قريتنا . اما أمى فماتت ليلة ولادتى .. لم أكن الوحيد الذى ولد لها فى تلك الليلة . لقد كان لى أخ أو اخت لا ادرى . وجدى نفسه لم يتذكر . وارتبكت حياة الجد الفقير . وتطوعت نساء الجيران بارضاعى أنا وأخى . كان يحملنا كل صباح الى احدى النساء الصغيرات الطيبات قبل ان يسعى على رزقه . يوما فى الغابة ، ويوما فى الحقل ، وآخر

لصيد السمك فى النهر الأصفر أو البحيرة الخضراء هل تعجب بعد هذا ان اشعر بالظلم ؟ ترسب فى نفسى الاحساس بأننى ظلمت أخى التوأم الذى مات بعد ولادته بشهور ، وباننى ظلمت جدى العجوز الذى لم يكن يجد ما يأكله . وظلمت نساء القرية اللائى لم يكن يجد طبق الأرز يملأ ضروعهن باللبن . وعندما تنبهت لأبناء التجار الأغنياء والحكام المتغطرسين ورأيت انهم يذهبون الى المدارس التى اغلقت ابوابها فى وجهى ، ويلعبون باللعب التى حرمت علىّ ، ويضحكون الضحكات التى لم تخرج من فمى .. عندما كبرت واكتشفت ان قريتى واحدة من آلاف القرى المظلومة فى مملكة الصين الشاسعة .. أدركت اننى مكلف بالانتقام من الظلم . بل خامرنى الاحساس بان السماء نفسها قد كلفتنى به . وارسلنى جدى الى معلم طاوى عجوز . وبدأ المعلم يلقنى اسرار الكتابة والنطق ، ويطلعنى على حكم الحكماء القدماء ، ويكشف لى ألغاز التحولات والحوليات والبين واليانج . كان المعلم يتوقع ان تهدأ ثائرتى ، أن يخف شعورى بالظلم ، أن أسلك الطريق وأتحد به حتى أكونه ، أن أتسلق معه قمة جبل الصفاء والنقاء وهبط معه الى ظلمات الجذور . لكن حياتى مع جدى الذى تحمل الظلم فى صمت ، وموته أمام عينى من قلة الطعام ، وشدة الهوان وحياتى مع المعلم العجوز الذى غير نفسه ولم يغير شيئا مما حوله ـ كل ذلك جعلنى أشعر بأن جبل الظلم والمظلومين ثقيل على صدرى .. على صدرى

انا وحدى ، وان رفع هذا الجبل من اساسه هو مهمتى انا وحدى . وعندما قابلت حاكم قريتنا العجوز عرفت انه مظلوم مثلى . وعندما ذهبت الى حاكم المقاطعة أفرغ شكواه فى اذنى .. والتقيت باللاجئين من عاصمة المملكة وعرفت انك انت الحاكم الذى لا يريد ان يسمع عن الطريق ولا ان يسير عليه .. وان المحكومين فى مملكتك قد افسدهم حكمك وحكم أعوانك ...

القيصـــر : عندئذ حضرت الى هنا لتعرف بنفسك الظلم والظالم والظالمين ..

النـاسـك : وما قيمة المعرفة وحدها ؟ لقد عرفت الكثير وقرأت الكثير . كان المهم عندى أن أغيِّر ..

القيصـــر : تغير الحاكم وأعوانه ؟

النـاسـك : كان طموحى أكبر من هذا ..

القيصـــر : الشعب ؟ هل تصورت ان تغير الشعب بأكمله ؟

النـاسـك : العالم .. قلت العالم كله ..

القيصـــر : وبدأت بالمشنوقين الذين أدبتهم فى الساحة ..

النـاسـك : وانتهيت هناك ايضا .. والفضل لك ..

القيصـــر : لى انا ؟

النـاسـك : نعم . نعم . استطعت ان تقتل المهرج الذى كان يرقد فى داخلى .. ان تخرس الطبلة الجوفاء التى نزعت جلدها عندما انتزعت جلدى ..

القيصـــر : ألم اقل لك هو القانون . شريعة الاجداد ..

النـاسـك : وهل تصورت اننى ألومك ؟

القيصـــر : بعد ان مسخت وجهك ؟ .

النـاسـك : على العكس .

القيصـــر : لا تقل اننى حولته الى وجه طفل ..

النـاسـك : وعليَّ الآن أن اجعل له قلب طفل ..

القيصـــر : هل أفهم من هذا انك تحولت عن تغيير الحاكم والمحكوم ، عن تغيير العالم ؟

الناسـك : على العكس ..

القيصـر : مازلت على ثورتك على الظلم ؟ .

الناسـك ومازلت تسيء فهمى ..

القيصـر : ماذا تعنى ؟

الناسـك : اعنى ان الكامل وحده هو الذى يملك وجه الطفل وقلب الطفل . وانا سأحاول من الآن ان اسير على الطريق المؤدى اليه .. الطريق الذى وضعت قدمى على اول خطوة فيه ..

القيصـر : آنا ؟ .. بهاتين القدمين المشوهتين ؟

الناسـك . نعم انت . بهاتين القدمين المشوهتين . بهذا الوجه البشع الممسوخ . انك لا تدرى ماذا فعلت بى ..

القيصـر : ماذا فعلت ؟

الناسـك : جعلت روحى تنطلق من جسد دفنته بنفسى . شعّت الروح كالفجر . ورأيت نفسى ، رأيت حقيقتى وجها لوجه . وبعدها أصبحت بلا ماض ولا حاضر . أرتفعت فوق الحياة والموت . حلقت فوق حدود التراب . واخيرا دخلت المملكة التى لا موت فيها ولا حياة ، هنالك تجد نفسك وانت تسعى على الطريق . تبنى وتهدم ، تجد وتوجد ، تخلق وتخلق . هنالك تكون على الطريق ومعه وفيه . تتحد بكل شيء ويتحد بك كل شيء . تتجمع حولك كل المخلوقات دون ان تحرك ساكنا . تغير كل شيء دون ان تفعل شيئا . تسحق وتولد نقيا كالوليد البريء .. عندئذ تكون أنت الكامل والكمال ..

القيصـر : (مأخوذا) الكامل والكمال ؟ !

الناسك : وعندها ترفرف خفيفا على أجنحة الفراغ وتتجول فى الجهات الست ، تسكن قصر اللامكان فى مملكة العدم ، تغوص فى بحر الابدية وتحرك كل الامواج دون ان تتحرك ..

القيصر : أسكن قصر اللامكان .. فى مملكة العدم . أغوص فى بحر الأبدية ولكن .. ولكن كيف أحكم المملكة ؟ ..

الناسك : عندئذ . لن تسأل هذا السؤال .

القيصر : كيف اقيم العدل ؟ وأحارب الظلم وابلغ الكمال ..

الناسك : ولن تحتاج لهذه الاسئلة ..

القيصر : ارجوك .. كيف أحكمها ؟ كيف احكم الشعب ؟ كيف احكم نفسى ؟

الناسك : (وهو يقف متهيئا للخروج) : هل يحتاج المحيط لان تملأه أو تفرغه ؟ ستكون قطرة فيه . لن تحتاج لان تفعل شيئا . ستفرح بوجودك فيه .

القيصر : أوضح .. أوضح ..

الناسك : عندما تصبح نورا ، سيتحول كل شىء دون ان تتحول . عندما تصير كاملا ، سيبلغ الكمال كل انسان في المملكة دون ان تتكلم او تعمل ..

القيصر : قل لى كيف ؟ بالمعرفة أم بالارادة ؟ بالقوة أم بالرحمة ؟

الناسك : (وهو يجرر رجليه بمشقة ليصل الى الباب . القيصر يحاول ان يساعده وهو يرفض ويبعده عنه ، ويعيد الكرة محاولا مساعدته فيبعده ..) هل تذكر القيصر الأصفر الذى كلمتك عنه ؟

القيصر : نعم . نعم . ذلك الذى روى معلمك قصته ..

الناسك : رحل القيصر الاصفر ذات يوم الى الشمال من البحيرة الحمراء ، تسلق جبل «كون ـ لون» وتطلع

الى الجنوب . ثم استدار عائدا الى وطنه . وفى اثناء رحلة العودة بحث عن لؤلؤته السحرية فلم يجدها . ثارت ثائرته وطلب ان ترجع اليه فى الحال . وانحنى قائد الحرس حتى كادت رأسه أن تغوص فى التراب . ثم اسرع الى افراد قواته والقى عليهم اوامره : ارسل المعرفة لتبحث عنها ، لكنها لم تجدها ، كلف بعد النظر أن يفتش عنها ، لكنه رجع دون ان يعثر عليها .

طلب من الفصاحة ان تأتى بها ،
لكنها ارتدت خائبة
واخيرا ـ وعلى مضض ـ لجأ الى البراءة ،
وفى لمحة جاءت بها ..
عندها قال القيصر الأصفر لنفسه :
من الغريب ان تحقق البراءة
ما عجزت عنه المعرفة وبعد النظر والفصاحة ..

القيصر : (للناسك الذى يتجه للخروج من الباب) : أوضح ما قلت ..

الناسك : (ينظر اليه ويشد الباب نحوه) : ربما تجدها انت ايضا ..

القيصر : ارجوك لا تتركنى قبل ان اعرف ..

الناسك : (وهو يزيحه بقوة عن الباب ويقول قبل ان يخرج) : ألا يسمونك القيصر الأصفر ؟ ربما تعثر مثله على اللؤلؤة السحرية .. (يخرج ويترك القيصر مذهولا)

* * * *

- ٤ -

(بعد سنوات من أحداث المشهد السابق . قرية على حدود مملكة «تسي» . يظهر كوخ الناسك المشوه على قمة جبل ، وامامه تابع شاب . تحته قليلا ، على المنحدر ، مجموعة من اهل القرية يبدو القلق على وجوههم ، كأنهم ينتظرون سماع نبأ لا يصدقونه . يدخل الغريب في صحبة واحد من أهل القرية ..)

الرجــــل : نعم ايها الغريب . هذه هى قرية الناسك المشوه . هل تعبت فى الوصول الى هنا ؟

الغــريـب : (يتأمل الجبل والجوخ) : تقول تعبت ؟ يمكنك ان ترى وتتأكد بنفسك اليس هذا هو جبل كو ـ شيه ؟

الرجــــل : (مشيرا الى الجبل) : نعم . هذا هو جبل كو ـ شيه .

الغــريـب : وهذا كوخه ؟

الرجــــل : وهو يرقد ساكنا والسكينة ترقد فيه ..

الغــريـب : (ساخرا) ويتجول كالارواح على قمته . كالثلج أو الجليد يبدو جسده من بعيد . وكالعذراء تسير خطاه على الأرض وتفتن الاسماع والانظار . هل قلت الأرض ؟ لا . لا . انه لا يأكل من فاكهة الأرض ، بل يتغذى على الندى والهواء . لا تلمس قدماه الأرض ، بل يسبح فوق السحب ، ممتطيا ظهر التتين المجنح ، محلقا وراء البحار الأربعة .

الرجــــل : (ضاحكا) ؛ أهذا ما يقولونه فى قريتكم ؟

الغــريـب : ويقولون ايضا : ومع ذلك فهو يحمى الكائنات من

الفساد ، ويجعل البذور تتفتح وتنمو ..

الرجـــــل : حتى يزدهر الربيع بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والعالم والاشياء ..

الغـــريـــب : وكيف أصدق هذا ؟ كيف أفهمه ؟

الرجـــــل : لا يُسأل أعمى عن سر جمال الصورة والتمثال . لا يُدعى أبكم وأصم لحفلة رقص وغناء . ألم تسمعهم يغنون هذا الشعر ايضا ؟

الغـــريـــب : وحتى لو سمعته .. أيصدق عقل أو يفهم ما يحكيه مجانين ؟

الرجـــــل : (ضاحكا) : وماذا يحكيه المجانين ؟

الغـــريـــب : ان العالم لا يمكنه أن يمسه بشىء .. لو جرفه السيل الذى يبلغ السماء فلن يبتل بالماء لو اشتعل حريق وصهر عناصر الأرض وأذاب رواسخ الجبال فلن يشعر بلسعة النار . هل يعقل هذا ؟ هل يصدق هؤلاء ؟

الرجـــــل : لا أعرف ان كانوا يصدقونه أولا . ستتكلم معهم بنفسك وتسمعهم باذنيك . هل نذهب اليهم الآن ؟

الغـــريـــب : انتظر . اريد ان اعرف رأيك انت ؟

الرجـــــل : أنا ؟ (يتطلع الى الجبل والكوخ) : لا ادرى . لا اظن اننى فكرت فى هذا قبل الآن . ربما لا يحتاج الأمر لمعرفة او تكفير ..

الغـــريـــب : فهمت . وبماذا أحسست اذاً ؟

الرجـــــل : احسست .. ربما كانت هذه هى الكلمة المناسبة . وهو ليس احساسى انا وحدى . نحن نحس ونشعر ياسيدى . نحن نرى ونسمع . وهو وحده الذى رفع العمى والصمم عن أرواحنا . نعم . فما اكثر الأرواح التى لا تزال عمياء وصماء .

الغـــريـــب : خصوصا مع الضيوف والغرباء ..

الرجـــل : معذرة . أنك لا تعيش معنا . أما أنا وهؤلاء ..
الغـــريـب : بماذا تشعرون ؟
الـرجــل : نشعر بأنه يظل كل شيء بمظلته . يضم كل انسان على صدره ويضعه فى قلبه . يأخذ منه همه ويحمله على كتفيه . انه راقد هناك . والعالم كله يرقد فيه . ساكن لا يتحرك . لكن قوته قوة تنين تبسط اثيرها على كل ما حوله . يلزم صمت الحجر اوالسلحفاة . مع ذلك يتردد صوته من هذا الكوخ الساكن . فيهز الأرض كصوت الرعد ، وتجاوب قوى السماء كل خلجة يرتعش بها جسده ونفسه . وتنضج كل الاشياء وتزهر بتأثير صمته وسكونه .
الغـــريـب : ويتم كل فعل دون ان يفعل شيئا ؟ ..
الـرجــل : نعم .. وينسكب الرضا من كل نفس والانسجام من كل شيء .. ألم أقل لك أن كل شيء يفرح من داخله حين يراه .. ان الربيع يزدهر بيننا وبين العالم منذ أن حل بقريتنا ؟ .
الغـــريـب : هذا المسخ المشوه ؟ ..
الـرجــل : اجل . اجل . هذا الذى مسخه القيصر الأصفر ..
الغـــريـب : القيصر الأصفر ؟ ! اسمعتم هذا ايضا ؟ .
الـرجــل : ألم تسمعه انت فى كل القرى التى نزلت فيها ومن كل الناس الذين سألتهم عن مكانه ؟ ألم يقل لك أحد إن القيصر الأصفر هو الذى مسخ وجهه حتى صار فحمة ، وقطع أصابع رجليه وشوهه ..
الغـــريـب : لابد انكم تلعنونه ليل نهار ..
الـرجــل : نحن نلعن ؟ ! انك لا تعرفنا ولا تعرفه . لقد تعلمنا منه كيف نفك أغلالنا بأنفسنا دون ان نلعن جلادينا .. ان نحرر انفسنا بغير ان نصرخ بالحرية .. كيف نلعن وقد علمنا ان نبارك كل شيء ..

الغــــريـــب : وهو ؟ ألم يلعن القيصر الأصفر ابدا ؟
الــرجـــــــل : ولم يسمعه احد منا يذكره على لسانه . فى احدى
الليالى ونحن نحتفل بزفاف عروسين تحت اضواء
المصابيح بينما هو يتمتم بالصلوات ويرتل الأدعية
فوق ربوة تطل علينا ويطل منها وجهه المغطى
بحجاب شفاف هتف العريس قائلا : لعنت السماء
القيصر الأصفر الذى حرمنا من مشاركته .. واذا
بصوته يدخل آذاننا كصوت السماء : لا تلعنه يا
ولدى .. فربما تتمنى يوما أن تمشى فى أثره وتقبل
التراب الذى يسير عليه ..
الغــــريـــب : هو يقول هذا ؟ !
الــرجـــــــل : بل أوقف طقوسة ونهض ليرجع الى كوخه . ولولا
توسلاتنا ودموعنا لما تم الزفاف ..
الغــــريـــب : غريب .. غريب .. يمسخ وجهه ويباركه .. يشوهه
ويدعو له ؟ ! ..
الــرجـــــــل : وما الغريب فى هذا ايضا ؟
منذ أن عرفناه ونحن نلتف حوله كالقطيع حول راعيه
انه لا يحرك اصبعا ،
ومع ذلك ننجذب اليه ،
لا يقول شيئا ، ويثق به الجميع ،
لا يملك شيئا يعطيه ،
ويحبه كل انسان ويفديه ،
يعلمنا بغير ان يعظنا ،
يأمرنا بغير أن يتسلط علينا ،
يصلحنا بغير أن يملى علينا شيئا .
ما الغريب فى هذا ايها الغريب ؟ ؟
ليتك كنت هنا يوم ان فوجئنا بالجيش الصغير الذى
حاصر قريتنا وحقولنا وصوب أسنان حرابه وسيوفه
نحو هذا الكوخ ..

الغـــــريـــب : (لنفسه) : ويلى .. الجيش الذى لم يرجع منه احد ..
الـــرجـــــــل : (مستمرا) : كان يوما لا ننساه .. صحونا على ضجيج الطبول وصهيل الخيول وزعيق الابواق .. صرخ بعضنا : ملك المغول هبط من الجبال .. ومعه جراد الرعاة الذى هبط علينا ليفترس لحم نسائنا وآطفالنا ويلتهم قوتنا . لكنهم لم ينزلوا الى القرية ولم يمشوا فى الشوارع .. لقد كان هدفهم هو هذا الكوخ .. الكوخ الوحيد على قمة جبل كو ـ شيه .. وهذا الرجل الوحيد القابع فيه .. فزعنا الى معلمنا .. هشنا الجنود كالذباب وهددوا من يقترب بقطع أصابع يديه ورجليه .. وهدر صوت القائد . أيها الناسك المشوه .. ايها الناسك الممسوخ .. لا تحاول الهرب .. وخرج الناسك كما يخرج مصباح وهاج الضوء من نفق مظلم .. سمعنا صوته يتردد كصوت الريح الآتية من البحر الى الأرض العطشى . لست انا الناسك المشوه ولا الممسوخ . كما اننى لا اهرب ـ هتف القائد وهو يمط رقبته ويحرك سيفه فى اتجاهه : اذا فسلم نفسك حتى لا نسلم رأسك للقيصر ..
الغـــــريـــب : هل قال هذا ؟ (لنفسه) الملعون : وقد أوصيته ان يركع أمامه ويتوسل اليه لكى يحضر معه ..
الـــرجـــــــل : بالطبع قاله .. لقد كنت يومها فى هذا المكان .. وهؤلاء كانوا معى ..
الغـــــريـــب : الرجال والنساء والعجائز ؟
الـــرجـــــــل : لن تصدقنى اذا قلت لك : حتى الأطفال .. حتى الأبقار والخراف والحمير التى كانت ترعى فى السهول ... قبل ان يزيد العدد وينضم اليهم الجنود ..
الغـــــريـــب : هل انضم اليهم أحد منهم ؟

الـرجــــــل : بعد آن هتف الناسك : هاهو صدرى عار .. هاهو عنقى يتوقع حد السيف .. القيصر يعرف هذا ايها القائد الصغير .. زعق القائد : القيصر يطلبك على الفور . سأل الناسك : يطلبنى آم يطلب راسى ؟ اجاب القائد وهو يلوح بالسيف المتعطش للدم · ان لم تحضر معنا فسناخذ رأسك .. ضحك الناسك : ان كانت رأسى ستنقذ المملكة فخذوها .. ان كان خلاص الشعب بان يرقص فوق جثتي فجروها الى هناك .. هاهو جسدى .. هاهو عنقى .. صدرى .. وجهي المحترق كفحمة .. قدماى الشاتهتان كحجر مبتور اخرس .. وتقدم الناسك هابطا هذا المنحدر .. فهتف القائد وهو يتراجع : ارجوك نريدك انت نفسك .. لا نريد رقبتك .. لا نريد رأسك ولا ذراعيك ولا قدميك .. القيصر الاصفر يريدك بجانبه .. المملكة تريدك .. اتوسل اليك .. اتوسل اليك .. حول نورك عنى .. حول نورك عنى .. تراجع القائد وتراجع الجنود .. تتابعت خطوات الناسك واستمر تقهقر القائد والجنود .. وارتفع صياحهم وبكاؤهم : حول نورك عنا .. حول نورك عنا .. والناسك يتقدم ويتقدم وهو يغنى : نورى هو نور القمر ونور الشمس . وحياتى ليست ملكى . فهى حياة الارض . حياة النائم فى حضن المهد حياة الراقد فى الرمس ، هذا جسدى خذه اذا شئت أو اكتف بالرأس . فأنا باق مع هذا الشعب وفى جذر الشجر وقلب الطفل وحد الفأس . خذ منى الجسد أو الرأس فلن تأخذ منى النفس .. وانطلق صوت لم ندر هل هو من الارض آم من حناجر الذين حاصروا الجند ام من الجند انفسهم . هى ملك الشعب وملك الارض وملك الجند ولو وضعوهم فى جوف الحبس .

والناسك يهبط ويهبط .. يشع منه نور لا يقهر ..
والجنود يلقون سلاحهم ويتقدمون نحوه .. والشعب
يهلل ويتقدم نحوه .. والقائد الصغير أسقط فى يده
وحوصر وفر من الحصار وانفلت هاربا الى البحيرة
والقى نفسه فيها .. هذا هوالذى حدث فى ذلك اليوم
الذى غابت فيه شمس وآشرقت شمس ..

الغــــريــب : ولم يعد الجيش .. ولا عاد القائد .. ولا الناسك ..

الــرجــــل : ماذا قلت ؟

الغــــريــب : لا .. لا شيء ..

الــرجــــل : وانضم الجنود الى الناس .. آخذوا يتعانقون
ويرقصون ويغنون .. واذا بالناسك يطل عليهم من
أعلى وينفذ فيهم .. وبغير حركة او اشارة انصرف
الجميع الى اعمالهم .. ها هو اولاء . تعال اسألهم
بنفسك .. تعال

الغــــريــب : يبدو القلق على وجوهم .. هل تصوروا اننى
عدوهم ..

الــرجــــل : (ضاحكا) : عدوهم ... انهم يرددون قول المعلم :
الطيبون .. أعاملهم معاملة طيبة
والاشرار ـ اعاملهم كذلك معاملة طيبة
فالفضيلة طيبة وخيرة .
الاوفياء .. اعامنهم بوفاء
والجاحدون .. اعاملهم كذلك بوفاء
فالفضيلة مخلصة وفية ..
(ثم هاتفا بالناس وهو يتقدم نحوهم) : ايها
الطيبون .. هذا الغريب قادم من بعيد ..

رجــــــل : هل لديه خبر عن الناسك

الغــــريــب : (مترددا) : أنا ؟ أننى مثلكم اسأل عنه ..

رجــــــل : هل تعرف إن كان سيبقى او يذهب ؟

امــــرأة : هل جئت لتشفيه من مرضه ؟ ..

شـــــــيخ : هل جئت لتأخذه معك ..
الغـــريـــب : انا ؟ لا .. لا ..
شــــــاب : لعله سمع عن قريتنا ..
امـــــــرأة : أصبحنا ملجأ سياح الأرض ..
الــرجــــــل : بل بيت ضيافتهم يا حسناء ..
امـرأة اخـرى : طبعا .. طبعا .. وسنكرمه .. كرما لن ينساه ..
الــرجــــــل : اسكتى انت .. تذكرى أن لك زوجا ..
صـــوت رجـــل : وان الناسك زوج آخر وان لم يرقد معك في سرير واحد !
المــــــرأة : خسئت .. لماذا تذكرنى بماض لن يعود ..
الــرجــــــل : (للغريب) : تلك قصتها . أتحب ان تسمعها منها ؟
صـــوت رجـــل : ليتك تذهب إليه ايها الغريب وتعرف الحقيقة !
صـوت رجـل آخر : وهل سيسمح له التابع بالدخول ؟
صـــوت رجـــل : نحن لا نتصور أن يتركنا .. كيف سنستغنى عنه ؟
لم لا يتكلم أحد منكم : كيف سنستغنى عنه ؟
صـوت رجـل آخر : وخصوصا لو أحرق احد منا بيته ..
صوت الرجل الأول : أنا لم أحرقه . لقد احترق . ألا تعرف الفرق بين الافعال ؟ ..
صـــوت الرجـــل : أعرفه من البيت الجميل الذى شيدناه بعرقنا ..
صوت رجل ثالث : لو ذهب فسوف أعود لطبعى ..
الــرجــــــل : (ضاحكا) : هل تقدر ان تترك الفأس والمحراث ..
صـــوت المـرأة : وترجع للسلب والنهب واقتحام خدور العذارى ..
(يضحك الجميع)
الــرجــــــل : (للغريب الذى اندمج فى احاديثهم) : ارجوك ..

اعذرهم فهم قلقون ..

الغـــريـب : وأريد ان اعرف السبب

الـرجـــل : وهل كانوا يقلقون لو عرفوه ؟ .. انهم ينتظرون كلمة من فم التابع . انظر اليه . انه صامت كعادته . والناسك في داخل كوخه .. أو في داخل نفسه . هل هو مريض ؟ هل غضب علينا ؟ هل يئس منا ؟ هل ينوى ان يتركنا . هل يحمل جرابه ويذهب الى قرية اخرى ؟

الغـــريـب : قرية اخرى ؟ ان قريتكم على حدود المملكة ..

الـرجـــل : الى مملكة اخرى من ممالك الصين الواسعة .. لابد انهم سيرحبون به .

اصـــوات : نحن سنمنعه من ذلك ..

اصـــوات : وسنستخدم معه القوة ..

صـــوت : القوة مع من عرفتهم قوته ؟

صـــوت : ان قوته فى ضعفه . وفعله فى عدم فعله . ولهذا لا تنفع معه القوة ..

الـرجـــل : لن ينفعنا الا الصبر .. أولم نتعلم منه مرارا ؟ أنت ؟ وأنت وأنت ؟

قولوا للضيف الوافد كيف تغير كل منكم ؟

كيف تفتت قطرات الماء الصخر ؟

كيف انهزم الذئب النائم فيكم

كيف توارى ناب الشر ؟

كيف ازدهر ربيع الحب

وفاض الخير وذاع العطر

الغـــريـب : (وهو يجلس على الأرض) : نعم . نعم . كيف وكيف وكيف ..

اصـــوات : حتى يتضح الأمر ..

وينكشف السر ..

(ينظر الجميع ناحيةالكوخ . يهزون رءوسهم ويجلسون على الأرض) .

(المشهد السابق نفسه . الرجال والنساء والاطفال يجلسون على الأرض فى دائرة كبيرة ، وكلما روى احدهم قصته مع الناسك توسط الحلقة واخذ فى تقمص دوره الغريب يجلس بجانب الرجل الذى كان يرافقه وعيون الجميع معلقة بالكوخ فى أعلى المنحدر وبالتابع الذى يجلس أمام بابه أو يذهب ويجىء فى خطوات قلقة ..)

رجـــــــــل : (وهو يبكى تأثرا) : لا يمكننى أن أتصور رحيله عنا .. كيف أقوى على فراقه ؟ ماذا اقول توديعا له ؟

الـرجـــــــل : ومن قال لك انه سيرحل ؟ اهدأ يارجل !

الـرجــل الأول : (مستمرا فى البكاء) : انا الذى كنت لا اتوقف عن التشرد والتجوال عرفت بفضله نعمة البيت والولد والاسرة ..

الـرجـــــــل : ولهذا فانت آخر من يحق له البكاء .. منذ ان عرفناك والضحكة لا تفارق وجهك وصوتك ..

الـرجــل الأول : وتريدنى أن أضحك الآن ؟ (يثبت عينيه على الكوخ ويشير اليه) .

الـرجـــــــل : بل اريد ان تضحكنا .. هيا أرو علينا قصتك معه ..

الـرجــل الأول : لا .. لا .. استطيع .. لماذا أروى عليكم ما تعرفونه جميعا ولا تريدون أن تنسوه ؟

الـرجـــــــل : الضيف لا يعرف .. هيا .. هيا ..

الـرجــل الأول : الضيف لا يعرف .. هيا .. هيا ..

الـرجــل الأول : (يجفف دموعه وينهض على قدميه) : هى قصة قديمة .. وقد كنت بالأمس ..

الـرجـــل : لا تكمل .. انت اليوم ممثل وحسب .. هيا الى وسط الحلقة ..

الـرجـل الأول : (ينتقل الى وسط الدائرة وهو يغص بدموعه) كانت ليلة غريبة .. آخر ليلة فى عمر اللص الذى كنته .. وعندما أتذكرها يخيل الىّ انها كانت ليلة ميلادى الجديد ..

الـرجـــل : نعرف .. نعرف .. انت الليلة تمثل الدور الذى لم يعد أحد بيننا يتذكره .. وهاهو القمر ..

الـرجـل الأول : اجل .. اجل .. نفس الوجه الضاحك الذى راح يطل علىَّ وأنا أغادر كوخه .. ومن يومها تعلمت أن أرفع رأسى الى السماء لأنظر الى القمر الذى لم أهتم مرة واحدة بالنظر اليه .. كنت مشردا ضائعا كما تعرفون .. لكننى كنت أملك تلك الشجاعة التى تدفع اللصوص الى اقتحام البيوت وتفتيشها بحثا عن شىء يعتقدون أنه سرق منهم ومن حقهم أن يستردوه .. كانت ليلة قارصة البرد . وكلما تذكرت عضة الجوع ولسع البرد حمدت السماء على الحساء الدافىء الذى يستقبلنى فى المساء كلما رجعت الى بيتى . لم أجد فى نفسى القوة على جر رجلى الى هذه القرية التى لم اكن اعرفها . وعندما وصلت الى الوادى ورأيت بصيصا من النور يتسرب من هذا الكوخ تأكدت من أننى سأجد الدفء ولو للحظات .. أو سأجد الملابس التى تستر عريى .. وتأكد ظنى بعد أن فتحت الباب فلم أجد احدا فى داخله ورحت اقلب الكوخ رأسا على عقب فلم اعثر على شىء يمكننى حمله معى .. حتى اللقمة الجافة لم أجدها فيه . وفجأة احسست يدا تربت على كتفى وترد الىّ نفسى المذعورة بلمستها الحنون . التفت

فرأيته امامى . طويلا نحيلا تشع البسمة من وجهه الاسود كالفحمة . ارتعش جسدى كله وحاولت أن اخرج كلمة واحدة . لكن صوته الطيب المتهدج امتد نحوى كأنه طوق النجاة : اعلم انك قطعت طريقا طويلا لتزورنى . يؤسفنى أن لا تجد عندى شيئا تأخذه معك.. هاك ردائى فخذه . وقفت مذهولا امامه . والرعشة تنفضنى وتحبس صوتى . وازداد ذهولى وأنا أراه يخلع رداءه الوحيد ويقدمها لى هامسا : لا يصح ان تخرج من عندى خالى اليدين . هاك ردائى فخذه . ومددت يدى فتناولته منه دون ان أنتبه الى ما فعلت . وقبل ان ابلغ السفح التفت الى الكوخ فرأيته يجلس عاريا امامه وهو يرفع كفيه الى القمر ويقول : مسكين .. تمنيت لو أستطيع ان أهديه هذا القمر البديع .. (الجميع يضحكون) .

الرجـــل : لكنك زرته بعد ذلك ..

الرجل الأول : نعم نعم . ولم اكن وحدى . كان فى صحبتى خمسة من زملائى الذين طالما أدبوا التجار الجشعين وأبكوا ملاك الأرض على اغنامهم وأبقارهم .. ودون ان يقول كلمة واحدة ابتسم فى وجوهنا وأخذ يتمتم وهو يبتهل الى السماء . أيتها الأرض الأم . ها هم يرجعون اليك . وشعرنا انه يعرينا من أقنعة ذنوبنا ويخلع علينا ملابس المتعبين المبللة بقطرات العرق ومياه القنوات والحقول ..

الرجـــل : ومن يومها ونحن نشرب من عرقكم ونأكل من حصادكم ..

الرجل الأول : ونتلهف على السير فى ظله أو على نظرة من عينيه .

الرجـــل : بينما كان غيرك لا يطيق رائحته ..

رجـــل : ان كنت تقصدنى فاننى اعترف ..

الرجل الأول : هيا الى المسرح ! ..

رجـــــــل : وكيف امثل وهو يحترق ؟ !

الـرجــل الأول : ألم يساعدك على اطفاء الحريق ؟

رجـــــــل : ولولاه ما فكرت في البقاء في هذه البلدة لحظة واحدة . كنت اجلس وسط الانقاض

الـرجــل الأول : الأفضل ان تجلس الآن وسط المسرح ..

رجـــــــل : (ينتقل الى وسط الحلقة) : نعم نعم . تصوروا رجلا أتت النار على بيته وفرشه ووقف أمامه وهو يضم أولاده وزوجته المذكورة الى صدره .. كنا قد فقدنا كل شيء .. الملابس والاثاث والمأوى والأمل . وكان الجيران قد انصرفوا بعد ان شاركوا في اطفاء الحريق وتخفيف دموع الصغار . وبقينا وحدنا امام عمر محترق وغد من رماد . وقبل ان يسلم الليل بالهزيمة ويسكن الدخان المتصاعد من حطام النوافذ والجدران والابواب وجدناه يقف امامنا وفي يده مصباح صغير . نظر الينا ووضع المصباح على الأرض وجاءنا صوته كنداء روح بعيدة عن أرواح الاسلاف : قم يا رجل . ألا تعرف ان بدايتك في نهايتك ؟ قلت : سيدى . انظر الى الحطام من حولك . قال وهو يشدني من يدى : ومن حطامك يرتفع بيتك الجديد . أشرت الى الركام الذي تتوهج فيه الجمرات كعيون القطط الغاضبة فقال : احترق بيتك ولكنك انت لم تحترق . تفحمت ابوابه ونوافذه ولكن فيك جوهرة لا تتفحم . تأملت وجهه الذي تحاشيت النظر اليه وبدأت افكر فيما قاله ولم يترك لي الزوار وقتا للتفكير . فقد فوجئت بأهل البلدة يتوافدون واحدا بعد الآخر . لم يكن هناك باب يطرقونه . وجدتهم امامي كأنهم على موعد واحد : النجار العجوز ومعه عربة عليها ألواح الخشب

والقادوم والمنشار وصبى صغير . فلاحون يحملون فئوسهم وسلالهم ويشرعون فى رفع الرماد والاحجار وشظايا الخشب وأسياخ الحديد .. عمال يسوون الأرض ويخطون العلامات ويثبتون الالواح والمسامير وينجرون ويطرقون ويتحركون كالاشباح فى حلم غريب . وأنا اتحرك معهم ، وزوجتى وأولادى يناولون وينحنون ويقومون ويسألون ويجيبون . والجميع يعملون كأن كل واحد نغمة تذوب فى لحن كبير . ما الذى أيقظهم فى هذه الساعة من الليل ؟ لقد شارك بعضهم فى إطفاء الحريق وتجفيف الدموع ثم انصرفوا الى بيوتهم ؟. ولم يتأخر بعض الجيران من احضار ما استطاعوا احضاره من طعام أو غطاء أو ماء .. أما أن يأتوا الآن ليزيلوا الانقاض ويرفعوا البناء ولا يتركونى واولادى حتى يغلقوا وراءهم الباب على بيت جديد فذلك شيء لا يحدث الا على أيدى السحرة أو فى حكايات الأطفال . وطالت حيرتى أمام اللغز العجيب . كيف تحولت البلدة الى رجل واحد وتحول العالم الى بلدة واحدة ؟ كيف تعلم الجار الا يغلق عليه بابه وجاره جائع او عطشان مريض او محزون ؟ ومازلت اسأل نفسى الى اليوم : هل طرق المعلم فى تلك الليلة كل الأبواب ؟ هل أحس احد أنه جاء الىّ وبدأ يزيل الحطام فى صمت فنبه النائمين ؟ لا أدرى . لا أدرى .

امــــــــــرأة : (ترفع صوتها) : حتى الحطام .. شارك فى رفع الحطام ..

الــرجــــــــل : أنت أيضا .

المـــــــــرأة : نعم . نعم . ولولا زوجته لأدفأته فى تلك الليلة الباردة ..

الرجل : وتعترفين أمام زوجك ؟

الزوج : اخجلى يا أمرأة !

المرأة : ومم الخجل ؟ لقد ذهبت بالفعل اليه ..

الزوج : تقولين هذا امامى ؟

المرأة : واقوله امام الجميع . لقد كنت حطاما ما قبل ان اتزوجك . ثم انه ماض لا يعينك ..

الرجل : (ضاحكا) : كيف لا يعنيه وهو الذى أزال الحطام وأقام البناء الجديد ؟

الزوج : قل لها يا أخى ..

المرأة : وهل انكرت فضلة ؟ لقد صار لى الآن زوج وبيت سعيد . ولكن لم يكن هو الذى رفع الحطام وأقام البيت الجديد ..

الزوج : يا للتناقض ! يا لجحود النساء ! هل سمعت شيئا هذا ايها الضيف الغريب ؟

المرأة : الضيف الغريب سيمعنى أنا . نعم ياسيدى . لقد كان هو الذى أقام البيت الجديد ..

الرجل : (ضاحكا) : وهو نفسه الذى أقام البيت السعيد ؟ !

المرأة : (تقف على قدميها وتقول بانفعال) : ليس فى هذا ما يضحك . تعرفون جميعا من الذى أقصده (تتلفت ناحية الكوخ) تعرفون جميعا من أنا وكيف كنت . هل فيكم من لم يعرفنى ؟

الزوج : اخجلى يا امرأة !

المرأة : ليس فى حياتى منذ أن تزوجتك شىء أخجل منه . اننى اتكلم عن الماضى وليس فيكم من لا يعرف ماضى .. (يطرق الجميع برءوسهم ويصمتون) أما كيف تحولت حياتى فى ليلة واحدة . كيف اصبحت انسانا مثلكم كيف بدأت أنظر فى وجوهكم وتنظرون فى وجهى بلا خجل ..

الـــرجـــــل : (مشيرا لها ان تتوسط الدائرة) : أرجوك . ليس فينا اليوم من لا يحترم الآخر ..

المـــــرأة : (تتوسط الحلقة وتبدأ حديثها) : أنا الحطام الذى رفعه بيديه الحطام الذى حوله الى زوجه وأم وانسان . نعم ياسيدى . استمع انت الىَّ . فأنت الوحيد الذى لا يحتاج ان يسد أذنيه .

الـــرجـــــل : استمرى . نحن جميعا نسمعك ..

المـــــرأة : كنت بغيا أعيش من عرق نهدىّ . أنام فى فراشهم عندما يشاءون ، وعندما يشبعون أو يملون أبحث عن مأوى ككلبة ضائعة . وأصبحت يوما على آلام فظيعة فى أحشائى ، ورغبة فظيعة فى أن اتقيأ ما فيها وأبصق على البلدة وكل رجل فيها . وتحملت الألم الذى لم استطع الخلاص منه ، كما تحملت النوم فى فراشهم لكى لا اموت جوعا . حتى جاءت ليلة الوضع وأنا أصرخ وحدى فى كوخ مهجور . ربما بلغت لعناتى سمع عجوز فقيرة رأيتها تدخل فجأة وتساعدنى على آلام المخاض وتمسح على وجهى بالماء الدافىء وتدس فى فمى حبات الأرز الطرية . ثم تتركنى لأنام مع الوليد الذى اندس كالجرو الصغير فى صدرى . وتعاود الزيارة ليلة بعد ليلة ومعها القليل من الأرز واللبن . كنت انظر من نافذة الكوخ فأرى البلدة تنام قريرة العين لا تشعر بالظلم ولا المظلوم . وانوارها تبدو من بعيد كنجوم تحرس جنة صغيرة راضية . ايتها البلدة المنافقة ! أيها الرجال المنافقون ! أيها العالم المنافق الوضيع ! كنت بعد انصراف العجوز أفكر فى شىء واحد ، شىء لا يمكن ان يلومنى عليه أقسى القضاة والكهنة والجلادين : أن آخذ طفلى وأجرى كالكلبة المسعورة الى اقرب

جبل لألقى بنفسى من فوق قمته . لكنى كنت احاول النهوض من فراشى فلا استطيع . واحاول ان اثبت قدمى على الأرض فلا تقوى قدماى على حملى . ويصرخ الرضيع ويطالب بحقه . وأصرخ من الألم وأعيد المحاولة . حتى فتحت عينى يوما فوجدته على رأسى . وجه اسود كالليل الذى تتوسطه شمس ابتسامة حانية . كان يحمل الطفل على صدره ويسنده بيده وذراعه اليمنى . أما يده اليسرى فكانت تربت على رأسى وشعرى محاولة ان تجيب على اسئلتى المذعورة . وكانت اول كلمة تخرج من شفتيه ردا على نظرتى الخائفة المتسائلة هى هذه الكلمة : نعم . قلت مستفسرة : نعم ماذا ؟ قال : لقد مات ولم تشعرى به . صرخت ومددت ذراعى نحوه . لا فائدة . علينا الآن أن نفكر فى دفنه . سألت باكية : متى ؟ قال : لقد جاء فى الوقت الذى كان لابد فيه ان يأتى وذهب حين كان لابد ان يذهب . قلت : البلدة كلها مسئولة عن ذنبه . قال فى هدوء : والعالم كله يا ابنتى .. ستعجبون اذا قلت لكم اننى ضحكت مع انه كان يحمل طفلى الميت على صدره وقلت : ابنتك ؟ شاب مثلك يقول هذا ؟ ثم نسيت ألمى وغمزت بعينى وقلت : انت الوحيد الذى لا ذنب عليه . ان الوحيد الذى لم يدعنى الى فراشه ! ابتسم وقال : ربما علينا الآن ان نفكر فيه . غلبتنى الرغبة فى مداعبته فقلت : وأنا ألا تفكر فى مصيرى : قال وهو يتطلع من النافذة : وأفكر فى مصير العالم . صمت دون أن أشعر : لا يهمنى العالم الآن . انه عالم منافق وضيع . كل من فى هذه البلدة منافق وضيع . لماذا لا تتزوجنى ؟ ابتسم وقال فى هدوء : يمكنك ان تعتبرينى زوجك . كتمت فرحتى وقلت : ويسموننى

زوجتك ؟ قال : بل يقولون بدأت تسير على الطريق . قلت محتجة : الطريق ؟ ما معنى هذا ؟ قال : هو الطريق كل من يتحد بالطريق يصبح هو العالم ، والسماء ، والأرض ، والأبدية . يجد نفسه فى الطريق ويجد الطريق فيه . تصورت انه يهذى فسألت : هل أنت ناسك ؟ قال وقد نفد صبره : لا أدرى . ولكنهم يدعوننى بهذا الاسم . واتجه الى الباب ومعه الطفل الميت . وغاب ساعة ثم رجع هو يقول : هو الآن فى حضن الأم . رفعت عينى اليه مستفسرة فقال : نعم ، يمكنك أن تطمئن عليه . الآن يرقد فى حضن الأرض الأم . عليك ان تفكرى فى نفسك . قلت : ألم تفكر فيها ؟ الم توافق على الزواج منى ؟ ضحك وقال : بشرط الا اعيش ولا أنام فى فراشك . قلت ضاحكة : وتسميه زواجا؟ قال بهدوء : هكذا تزوجت العالم وتزوجنى . هكذا اتحدت بالأرض والسماء والشجر والنجوم والبشر والحيوان واتحدت بى . سكت لحظة ورحت اتطلع فى وجهه المتفحم وقدميه الخاليتين من الأصابع فقال بعد لحظة : يمكنك ان تطمئنى . وعندما تستردين عافيتك تعالى الى كوخى وستجدين ما تطلبين . ووضع لفافة كبيرة على سريرى وانصرف . وبعد ان اختفى ظله فتحتها ووجدت فيها ما يكفينى من الطعام عدة ايام . ولم أكد استرد انفاسى حتى سألت عنه ، وذهبت اليه . ضحك عندما رآنى وهتف : ايتها الزوجة الهاربة ؟ هل عدت اخيرا ؟ وضحكت انا ايضا عندما وجدته يقدم الىّ رجلا كان يقف فى ركن منزو ويبتسم الناسك بدوره وهو يضع يده فى يدى ويقول : هذا البستانى الذى يرعى الاشجار القليلة امام كوخى يمكن ايضا ان يرعى بستانك ..

الـــــــزوج : وقد رعيت البستان ووضعت بذرى فيه ..
المـــــــرأة : حتى منحت ثلاثة أزهار برية ! (يضحك الجميع ـ تضحك المرأة فى خجل وترجع الى المكان الذى كانت تجلس فيه)
الـــرجـــــل : (متلفتا الى الجميع) : والآن ! من جاء عليه الدور؟ (يسمع صوت نداء ـ يا حارس الحدود ! يا حارس الحدود !)
الـــرجـــــل : ها هو ينادينى ـ لابد أن احدا يعبر الحدود نعم . نعم . أهناك من يدفع الضريبة ؟
المنـــــادى : عجوز ومعه صبى . يريدان أن يجتازا الحدود ..
صـــــــوت : ربما يقدم لك هدية ..
صـــــــوت : ضمنت عشاءك الليلة ..
صـــــــوت : تذكرنا وأنت تمضغه على مهل ..
الـــرجـــــل : لابد أن أذهب .. أراكم بعد قليل .. (ينصرف مسرعا)
رجـــل آخـــر : من جاء عليه الدور ؟ (يشير الى رجل)
رجـــــــــل : أنا ؟ لا .. لا ..
رجـــل آخـــر : تعرفون قصتى اكثر مما اعرفها ..
رجـــــــــل : ومن هنا لا يعرف قصة كل منا ؟
رجـــــــــل : النساء اسرار !
المـــــــرأة : ولا يخفى عليهن سر !
رجـــــــــل : اذن نسكت جميعا ويتكلم الغريب ..
اصـــــــوات : الغريب ! الغريب ؟
رجـــــــــل : قل لنا من أنت . من اين أتيت . ماذا تعمل ؟
رجـــــــــل : يبدو انك صياد ...
رجـــــــــل : أو جندى هارب !
رجـــــــــل : أو طالب علم متجول !
رجـــــــــل : أو مطرود منفى من بلده ..
رجـــــــــل : أو من مملكته ! (يضحكون ـ الغريب يبدو عليه

الارتباك . يتلفتون الى الكوخ فيسمعون صوت التابع ينادى) :

التـــابـــع : ايها القيصر الأصفر !

الجمـــــيع : القيصر الأصفر !

التـــابـــع : تعالى ايها القيصر الأصفر . الناسك فى انتظارك !

(يضطرب الجميع . يحاول البعض ان يهجم على الغريب فيحول الرجل بينه وبينهم . تتردد بعض الاصوات : جاسوس ! اقبضوا عليه دعوه .. ابتعدوا عنه ! خدعنا ـ لا يصح أن يفلت منا ـ الناسك يطلبه ـ سمعتم انه ينتظره ـ دعوه ـ لا تقتربوا منه ! لا يمسه احد !)

التـــابـــع : ايها القيصر الأصفر !

ايها القيصر الأصفر !

الناسك فى انتظارك ..

أسرع فقد اوشك الرحيل ..

* * * *

- ٦ -

(فى كوخ الناسك . الاضاءة خافتة . التابع يدخل على أطراف أصابعه ، وأنين الناسك الراقد على فراشه يتردد كأنه يصارع نزعات الموت . التابع يتجه الى النافذة الصغيرة ليفتحها فيوقفه الناسك بقوله :) .

النـــاســـك : لا لا . لا تفتحها ..

التـــابـــع : أنه قادم ..

النـــاســـك : كنت أعرف أننا سنلتقى .

التـــابـــع : بعد لحظات تتسمع طرقه على الباب .

النـــاســـك : (يتألم) : وآسفاه ! جاء بعد فوات الأوان .

التـــابـــع : (يشد الستائر) : أليس الأفضل ان يغمر النور كل شىء ؟

النـــاســـك : آه .. لماذا تؤلمنى يا ولدى ؟

التـــابـــع : عليه أن يرى جريمته . أن يحس بما جنت يداه ..

النـــاســـك : انت الذى تجنى علىّ .

التـــابـــع : انا يا معلمى ؟

النـــاســـك : نعم أنت .. هل نسيت ما قلته لك يوما : كن نورا يا ولدى تنهزم الظلمات أمامك ..

التـــابـــع : ولهذا فتحت النافذة .. لابد أن يعرف ذنبه ..

النـــاســـك : أغلقها ياولدى وكف عن هذا الكلام ..

التـــابـــع : لماذا يا معلمى ؟ هل أخطأت عندما تكلمت عن جريمته أليس هو المسئول عن آلامك الفظيعة طوال سنوات

وسنوات ؟ ومامعنى زيارته ان لم يشعر بالندم ؟

الناسك : الندم ؟ بعد فوات الوقت ؟

التابع : الوقت لم يفت يا معلمى . ان الجلاد يصعد المنحدر عليه أن يقف الآن أمامك ..

الناسك : ليواجه الجلاد ضحيته ؟ ! ما أشد سذاجتك ! وماذا يستفيد الشعب من هذا ؟ ماذا تستفيد الأرض والسماء ؟ ليتك تعلمت منى شيئا ..

التابع : تعلمت الكثير ياسيدى .. كل ما أقوله ..

الناسك : (متألما) : كل ما تقوله يثبت أنك لم تتعلم شيئا . لم تتخلص من الطبلة الجوفاء .. أغلق النافذة .. أرجوك (يتأوه ألما) .

التابع : قبل ان اضع الدواء بجانبك ؟

الناسك : (ضاحكا بصعوبة) : نعم نعم : تلك الاعشاب الصفراء التى لم تنجح فى شفائى .. آه من هذا اللون الأصفر فى كل شىء .. لا تنسى العكاز ايضا يا ولدى ..

التابع : (يسمع طرقا على الباب) : هل تفكر فى النهوض من الفراش ؟

الناسك : افعل ما قلت لك . هل سمعت الطرق على الباب ؟

التابع : (يشد الستارة فيخفت الضوء . يتحرك بسرعة فى أرجاء الكوخ الذى يعرفه جيدا فيضع الدواء بجوار المريض ، والعكاز على حافة السرير ـ يتجه نحو الباب ويفتحه ، يدخل القيصر الأصفر الذى يضع يديه على عينيه قبل أن يسمع صوت الناسك :)

الناسك : جئت ايها القيصر الأصفر ؟ ..

(التابع يأخذه من يده قليلا . يتقدم خطوات الى الأمام . ينسحب التابع ويغلق الباب وراءه . يسمع صوت الناسك ..)

الناسك : تعال .. تعال ايها القيصر الأصفر ..

القيصر : سيدى .. لا أكاد أرى شيئا ..

الناسك : لا يهم أن ترى .. لا يهم ان تسمع .. ألا تتذكر ماقلته لك ؟ (يتأوه من الألم) .

القيصر : اسمعك تتألم ايها الناسك . وأنينك يدل خطاى فى هذا الظلام ويزيد احساسى بالندم ..

الناسك : الندم ؟ .. لا داعى لأن تنطق هذه الكلمة . لا داعى لأن اذكرك بما قلته لك من قبل . ثم ان الوقت قد تأخر ..

القيصر : تأخر ؟ ماذا تقصد ؟ لكنه سيتسع لتوبتى . سيتسع لأركع على قدميك اللذين قطعت أصابعهما ، وأغمر بدموعى وجهك الذى أحرقته .. سيدى .. سيدى (ينشج نشيجا مؤثرا .. يتسمر فى موضعه فيناديه الناسك) .

الناسك : بل يتسع الوقت لكى نتحدث كصديقين .. لكى أجدد لك شكرى ..

القيصر : تشكرنى مرة أخرى ؟ بعد هذا الزمن الطويل ؟

الناسك : ولم لا ؟ ألم تساعدنى على التخلص من الطبلة الجوفاء ؟ ألم تساعدنى على أن أضع قدمىّ على الطريق ؟

القيصر : لكننى نزعت مع الطبلة جلدة وجهك . ولم أضع قدمك على الطريق قبل أن اقطع أصابعك .. أرجوك .. أعطنى فرصة الندم . لا تحرمنى منها ..

الناسك : لن يتسع الوقت . ما بقى منه لا يسمح بالتلفت الى الماضى ..

القيصر : لكنك تتألم .. تتألم .. ألم تقل لى ذات يوم : لقد دفنت جسدى . وكذلك لم أعد احس بالألم ..

الناسك : (محاولا ان يضحك) : نعم نعم : يبدو أننى استطعت ان ادفن جسدى بنفسى ولكنى لم انجح فى ان أدفن المى .. تعال .. تعال نحاول ان نعيده الى قبره ..

القيصر : وأقوم مرة أخرى بدور الجلاد ؟ وتواجهنى مواجهة الضحية ؟

الناسك : جلاد ؟ وضحية ؟ كأنك تكرر كلام التابع الصغير . قلت لك لا وقت للندم ولا للحساب ..

القيصر : هنالك دائما وقت للانتقام ..

الناسك : (فى فزع) : الانتقام ؟ ! وأنا فى آخر انفاسى ؟ !

القيصر : حتى القديس لابد ان يفكر فى الانتقام عندما يقع جلاده فى يديه ..

الناسك : لقد جئت بنفسك ولم تقع بين يدى . سعيت الىّ ولم احاصرك بجيشى ..

القيصر : وهذا ما يزيد احساسى بالندم . كانت غلطة فظيعة .. (يعود الى نشيجه المتقطع فى الظلام) .

الناسك : تعال .. تعال .. قلت لك إن الوقت تأخر .. أتريد أن أحضر أنا اليك ..

(يبحث عن العكاز - يحاول ان يقوم من الفراش ويستند عليه فتتندّ عنه صرخة ألم فظيع . يسرع اليه القيصر ..)

القيصر : ما هذا ؟ ماذا تفعل ؟ (يصل اليه ويركع عند فراشه) .

الناسك : (متأوها) : لا شىء .. لا شىء .. حاولت ان المس يديك .. ربما حاولت ايضا أن أعانقك وأضمك الى صدرى ..

القيصر : تعانقنى وتضمنى الى صدرك ؟ !

الناسك : نعم نعم . ألم نتفق على أن ندفنه معا ؟ ألم أقل ان الوقت لا يتسع لألم ولا ندم . اعرف انك جئت لشىء آخر ..

القيصر : صحيح ما تقول .. وها أنا أرى أن الوقت تأخر ..

الناسك : تكلم .. تكلم .. ربما يتأخر تماما كما نتصور ..

القيصر : تغير الآن كل شىء .. تغير كل شىء ..

الناسك : ربما اكون قد تغيرت . هل حاولت ان تغير نفسك ؟ هل عثرت على اللؤلؤة السحرية ؟

القيصر : اللؤلؤة السحرية ؟ نعم نعم .

الناسك : هل وجدتها ؟

القيصر : فشلت ايها الناسك . القوة لم تعدنى اليها . المعرفة والفصاحة لم تساعدانى على العثور عليها . قلت لك فشلت وعجزت . ولهذا جئت لتهدينى اليها .. جئت لأتوسل اليك أن تصحبنى الى هناك وتكون ذراعى اليمنى ..

الناسك : حتى لو سمح الوقت ، هل كنت تنتظر ان احضر معك ؟ ..

القيصر : بعد ان جئت والدموع فى عينى ..

الناسك : قد يتسع الوقت لالقاء سؤالك ..

القيصر : سؤالى ؟ نعم نعم . لقد نفذت ببصيرتك الى قلبى . وهل تحتاج ان القيه عليك ؟ انك تعرفه بنفسك ..

الناسك : نعم اعرفه . السؤال الذى لم يجب عليه احد حتى الآن فى مملكة الصين الواسعة . السؤال الذى جعلنى اترك قريتى ومعلمى وأهلى وانطلق لتغيير العالم ..

القيصر : لقد نجحت على الأقل فى تغيير نفسك .. نجحت فى تغيير الناس من حولك ..

الناسك : أتظن هذا ؟

القيصر : لقد رأيتهم بعينى وسمعتهم بأذنى وتكلمت معهم بلسانى ..

الناسك : ومازلت تردد السؤال .

القيصر : نعم نعم .. كيف احكم المملكة ؟

الناسك : كيف تحكم المملكة ؟ كيف تحكم الشعب ؟ أيتها السماء أمهلينى حتى أروى عليه بعض الامثلة والحكايات ...

القيصر : لم أحضر لسماع امثلة وحكايات . أريد منك الأجابة على السؤال ..

الناسك : وهذه هى طريقتى فى الاجابة ..

القيصر : اننى استمع اليك .. عم تبحث ايها الناسك ؟

الناسك : عن الدواء .. ناولنى هذه الاعشاب ..

القيصر : (يبحث عنها ويجدها . يناولها له) : هذه ؟ ..

الناسك : نعم نعم . ربما تنجح فى تخفيف الالم .. (يضع فى فمه بعض الأعشاب السفراء . يتنحنح ويقول :) .
رحل الحكيم «تيين ـ كين» الى الجنوب من جبل بين . ولما بلغ نهر «لياو» لقى رجلا مجهولا يهيم على وجهه . سأله الرجل : هل تسمح لى ايها الحكيم بأن أسألك سؤالا ؟ قال تيين كين : اسأل يا ولدى . قال الرجل : كيف أحكم المملكة ؟ غضب الحكيم فجأة ونهره قائلا : أبتعد عنى . انك انسان فاشل . ولابد انك حاكم فاشل . ثم ان سؤالك فى غير محله . فمنذ ان سرت على الطريق اتحدت مع كل شىء واتحد كل شىء معى . وها انا احلق بجناحين خفيفين فوق جهات الأرض الست . أدخل مملكة العدم وانطلق وحيدا فى وحشة السكون والفراغ العظيم لأتوحد بالحركة والأمتلاء العظيم .
بدا على وجه الرجل المجهول انه لم يفهم شيئا .
حدق فى وجه الحكيم وأعاد سؤاله للمرة الثانية : أرجوك . كيف احكم المملكة ؟
أجاب الحكيم تيين ـ كين قائلا : تحرر من كل شىء . أرجع روحك للبراءة . عود جسدك على السكينة . اسلم نفسك لنظام العالم حاول ان تتخلص من ذاتك وانانيتك . لا تفعل شيئا . لا تتدخل فى شىء . لا تتحكم . لا تتسلط . وستفعل كل الاشياء

وتحكم مملكة العالم .

أدار الحكيم ظهره للرجل المجهول ومضى الى حالة سبيله . وقف الرجل مبهوتا يحدق فى ظهر الحكيم ويرفع رأسه للسماء ويقلب طرفه فى الجبل والوادى قبل ان ينطلق جاريا وراءه : انتظر ! انتظر ايها الحكيم ! كيف احكم المملكة ؟ لم يعره الحكيم التفاتا . وربما لم يسمع صوته . فقد كان قد عبر نهر «لياو» وقطع مسافة طويلة على الطريق الى قمة الجبل الأخضر .

القيصر : غريب . هذا شبيه بما حدث لى ..

الناسك : لك أنت ؟

القيصر : نعم نعم . لقد قابلت اكثر من حكيم وتلقيت نفس الجواب .. ومع ذلك لم يتغير شىء فى المملكة ..

الناسك : ربما لم تحاول أن تغير نفسك قبل أن تغير المملكة ..

القيصر : حاولت .. حاولت ومع ذلك تخلى عنى شعبى ..

الناسك : مثلما فعل القيصر «تين ـ هوى» عندما لبس رداء النساك الفقراء وذهب الى الحكيم كونج ـ فوتسو ..

القيصر : هو أيضا فعل هذا ؟

الناسك : وسأله نفس السؤال ..

القيصر : لماذا تخلى عنى شعبى ؟

الناسك : وتوسل اليه ان يدله على الطريق ..

القيصر : هذا ما أريده انا ايضا .. لهذا جئت اليك ..

الناسك : هل تعلم ماذا قال له كونج ـ فو ـ تسو ؟

القيصر : ماذا قال له ؟ ..

الناسك : هناك طريق . لكن من الصعب ان تسير عليه . فالطرق السهلة ليست هى طرق السماء . هل جربت الصوم ؟

قال القيصر : لقد امتنعت منذ شهور عن اكل اللحم

وشرب النبيذ ..
قال الحكيم : لا يكفى . هذا هو الصوم الذى قررته الطقوس .
انصرف القيصر ثم رجع بعد شهور وقال :
ـ ايها الحكيم . لقد صمت عن تقديم التضحيات وأداء الطقوس .
قال الحكيم : حسن ان تفعل هذا . ولكنه لا يكفى ..
غاب القيصر عدة شهور ثم رجع الى الحكيم وقال :
ـ ايها الحكيم . ايها الحكيم .
رفع الحكيم بصره اليه فوجد امامه رجلا مهزولا نحيل الجسد فسأله :
يبدو انك خطوت خطوات أبعد ولم تقتصر على الصوم عن الطعام والشراب ..
فرح القيصر ببعد نظره ونفاذ بصيرته وهتف :
ـ نعم نعم . لقد صمت كذلك عن الكلام . وصمت عن وعظ الناس بالعدالة والفضيلة وحب الجار .
أطرق الحكيم برأسه قليلا ثم رفعها وقلب فيه عينيه الحزينتين وقال : كل هذا حسن . لكنه لا يكفى ...
ـ غضب القيصر ونسى فى فورة غضبه أنه يرتدى ثياب الناسك الفقير وصاح : ماذا بقى علىَّ لأفعل ؟ ماذا بقى علىَّ ؟
قال الحكيم بهدوء : لابد من صوم القلب .
سأل القيصر نافد الصبر : وما هو صوم القلب ؟
قال الحكيم : تعلم ان تتحد وان تتجرد ..
تبلد وجه القيصر بسحب الهم الثقيلة ولم ينطق .
فاستطرد الحكيم كونج ـ فو ـ تسو قائلا : أن تتحرر من كل شىء وتتحد بكل شىء . هذا هو صوم

القلب . فى مثل هذا القلب يسكن «الطاو» لمثله تأتى الحقيقة . ومن يصل اليه لن يسأل سؤالك لن يتعذر عليه حكم انسان . ولن يتعذر عليه حكم المملكة .

القيصر : وهذا هو ما فعله القيصر ولم ينجح فى حكم الانسان ولا حكم المملكة ..

الناسك : وكيف عرفت هذا ؟

القيصر : لهذا جاء يستعطفك ويتوسل اليك ..

الناسك : جاء والحكيم ينازع الموت .

القيصر : لاتقل هذا . لاتزال هناك بقية لطرح السؤال والعثور على اللؤلؤة ..

الناسك : (يحاول أن يضحك) : إن تخلى عن القوة والمعرفة والفصاحة !

القيصر : صدقنى أيها الناسك الحكيم . لقد تخليت عن كل شيء كما أوصى حكماؤك .

الناسك : ماذا تقصد ؟

القيصر : ربما لاتصدقنى . ولكن هاأنذا امامك . لولا هذا الضوء الخافت لرأيتنى وصدقتنى . لقد فكرت طويلا فيما قلته لى فى ذلك اليوم .

الناسك : تقول فكرت ؟

القيصر : ولم أكتف بالتفكير . هِمْتُ على وجهى فى الجبال والوديان والبرارى شهورا طويلة . خلعت ثوب القيصر وتاجه ولبست ثياب النساك الفقراء .

الناسك : أنت فعلت هذا ؟

القيصر : فعلته . فعلته . عفرت وجهى فى التراب أمام الحكماء . صمت عن أكل اللحم وشرب النبيذ وأداء الطقوس والوعظ بالعدالة والفضيلة وحب الجار .

الناسك : لكنك لم تصم صوم القلب ..

القيصر : وهذا أيضا جربته . ورحت أبحث عنك فى كل مدينة وقرية .

على قمم الجبال وفى الكهوف والوديان الموحشة . حتى عثرت عليك اخيرا واسرعت اليك .

الناسك : لتسألنى نفس السؤال ..

القيصر : أجل .. أجل .. كيف أحكم المملكة ؟ لماذا تخلى عنى الشعب ؟

الناسك : ولم يخطر على بالك الجواب ؟

القيصر : جئت لاسمعه منك ..

الناسك : عندما تخليت عن الشعب تخلى عنك . اسمع ماحدث لى بعد أن خرجت من قصرك ومضيت ابحث عن مكان استقر فيه .

القيصر : حكاية أخرى ؟

الناسك : ربما تجد فيها الجواب . كنت قد غادرت لتوى قرية صغيرة لم تستقبلنى فيها الا الوجوه العابسة والعيون اليائسة . كان من الواضح أن القرويين يعانون من القحط والجوع ولايريدون أن يزيد عدد الأفواه والبطون الجائعة . وتركت القرية وسرت على الطريق المؤدى الى الجبال المحيطة .
وعندما مررت بسور مزرعة جفّ فيها العشب واقفرت الحقول ومخازن الحبوب لمحت عددا من الخنازير الصغيرة الهزيلة التى التفت حول أمها وراحت تتنافس فى صراع مرير على ضرعها . كانت تحاول وتحاول . تبتعد وتقترب ، تغرس أفواهها فى لحم الأم وتتشبث لحظة بحلمات ضرعها ثم تيأس منها وتعود الى المحاولة العنيدة . وبعد لحظات رأيتها تتجمع عند رأس الأم وتحدق فيه قبل أن تفر هاربة مذعورة .
هل تعلم لماذا فرت الخنازير الصغيرة وهى تنتفض يأسا وخوفا ؟

القيصر : لأن ضرع امها كان خاليا من اللبن ؟

الناسك : بل لأن امها كانت قد ماتت جوعا . وتجمعت الخنازير الصغيرة حولها وحاولت ان ترضع منها . ثم اكتشفت بعد قليل ان عيون الأم باردة مطفأة لاتنظر اليها ولاتعطيها الحنان الذى تعودت عليه فانفلتت جارية مذعورة

القيصر : أهذا هو حال شعبى معى ؟
الناسك : بالطبع . عندما تخليت عن الشعب تخلى عنك ..
القيصر : أنا لم أتخلَّ عنه . لقد جربت كل طريق يؤدى الى سعادته .. سرت على كل طريق يؤدى الى اشباع بطنه بأنواع الحبوب الخمسة ..
الناسك : ولم يكن طريقك هو الطريق ..
القيصر : ماذا تقصد ؟
الناسك : عندما تخليت عن طريق الحقيقة تخلى عنه الشعب . وعندما تخلى عنه ضلت الانسانية . وعندما ضلت الانسانية غرق فى البؤس والجوع والفوضى والجريمة ..
القيصر : لست وحدى مسئولا عن الفوضى والجريمة . لقد وثقت بأعوانى الذين اعطيتهم الثقة فخانونى ..
الناسك : اعطيتهم الثقة أم السلطة ؟
القيصر : وما الفرق ؟ هل يمكن أن يعمل الشعب بغير سلطة حازمة تراقب عمله وتعاقبه على تهاونه وخروجه على القوانين ؟
الناسك : وأصبحت السلطة هى التسلط . وصار العمل هو القهر ، والطاعة العمياء هى المبرر الوحيد للحياة . والعقاب هو الغاية والنهاية الأخيرة . حتى اشتهرت الصين بأنها بلد العقاب ، وتحول شعب الصين الى شعب المعاقبين بأغرب أنواع العقاب .
القيصر : هذا هو ذنب الأعوان الذين لم يخلصوا لى .
الناسك : آه ! أسطورة الحاكم والأعوان .. بل أخلصوا لك ولأنفسهم كل الاخلاص . اليسوا هم ظلك على الأرض ؟ أليسوا أشباح القيصر المتربع على عرش المملكة ؟ لقد فعلوا ماحذركم منه الحكماء قرونا بعد قرون .
القيصر : هل انتظرتم ان يفهموا ماتريدونه بعدم الفعل ؟ هل كان يرضيكم أن تتحجر المملكة ، ويتجمد الشعب ، ويتحول الناس الى جيوش من الكسالى والمتسولين والمتبلدين .

الناسك : الذين اوصوا بعدم الفعل كانوا يقصدون عدم التسلط . والذين تسلطوا اضاعوا الطريق فضاع الشعب .. آه . من جيش المتسلطين الذين خربوا ممالك الصين ! كان القيصر فى العصور القديمة المباركة هو الأب الحكيم . لم يهرب منه الشعب كما هربت الخنازير الصغيرة من امها الميتة . اتدرى لماذا ؟ لأنه لم يكن ميتا . أتدرى متى يحيا الانسان كالميت ؟ عندما يعيش ليتسلط على غيره ويفرض عليه الطاعة ويضع على رقبته سيف العقاب . عندما يحتكر الحياة لنفسه ويحول غيره الى اموات . عندما يصمم على اقامة عرشه فوق مقبرة جماعية . الا تذكر ما كان يقوله لك معلمك وانت صغير ؟ هل نسيت الكلمات المأثورة التى كان يعلمك ان تقرأها وتكتبها بينما كان أبوك ينظر اليك بحنان ويحلم بأن تخلفه على العرش ؟

القيصر : نعم . نعم . القيصر هو وسط المملكة . هو مركز التوازن بين السماء والأرض ..

الناسك : وكم مرة فى التاريخ اختل ميزان الأرض والمملكة ؟ كم مرة اختل الميزان فاختل التوازن . وعندما اختل التوازن اختلت الانسانية . وعندما اختلت الانسانية ضل الناس الطريق . وفقدوا الأمن والسعادة . وندموا على انهم ولدوا فى مملكة الطاعة والعقاب . فى مملكة الصين ..

القيصر : لم يحدث هذا الا عندما فسد الحكم والحاكم .

الناسك : وقد علمك مربيك العجوز ان الحاكم اذا فسد فسد الحصاد وفاض النهر الأصفر ، وعصفت الأوبئة والمجاعات وانهارت جبال الثلج لتغرق المدن والقرى والحقول .

القيصر : وعبرت السحب فلم تمطر ، وسقطت الأوراق قبل ان تجف ، وشحب وجه الشمس والقمر . معذرة ايها الناسك . يبدو انك لم تتغير .

الناسك : لقد حاولت أن أغير نفسى .

القيصر : ومازلت ثائرا كما رأيتك أول مرة . انى لأعجب من

شــىء واحــد .

الناسك : وماهو أيها القيصر ؟

القيصر : كيف يجتمع الثائر والقديس فى شخص واحد ؟

الناسك : وما الذى يمنع هذا ؟ ما الذى يحول دون أن يصبح الثائر قديسا والقديس ثائرا ؟

القيصر : حقـا لايمنـع شىء . يكفـى أن أنظـر اليـك لاتـأكد مـن هــذا .

الناسك : (ضاحكا ضحكة عالية ، يتبعها سعال شديد) : الىّ أنا ؟ هل تحملت مشقة السفر الطويل لتقول لى هذا ؟

القيصر : ويكفينى أن آراه بعينى .

الناسك : لقد جئت لتسألنى لا لتجاملنى .

القيصر : كنت أحلم بأن تصحبنى وتكون فى عونى .

الناسك : وهاأنت تصحو من الحلم . أما الثائر فقد قضيت عليه .

القيصر : جئت نادما باكيا ؟

الناسك : وقلت لك لاداعى للندم والبكاء .. فلم تكن اول المتسلطين عليه .

القيصر : لن يريحنى هذا من الندم . فربما كنت اخرهم .

الناسك : (يسعل سعالا شديدا) ربما . ربما . واما القديس .

القيصر : اننى اراه امامى واشعر بأنفاسه على وجهى .

الناسك : وهل تشعر بأنها انفاسه الأخيرة ؟ ارجوك .. (يبحث عن العكاز) ساعدنى كى استند على عكازى . أريد أن أودع قريتى .

القيصر : لاتـرهق نفسـك . لقد زرتـها قبـل قليـل وتحـدثت مـع أهلهـا .

الناسك : أرجوك .. ساعدنى .

القيصر : (يساعده على النهوض ويسنده على العكاز . الناسك يقف امام النافذة ويطل على القرية) : من يرى مارأيت لابد ان يقول : هذه معجزة لايقدر عليها الا قديس .

الناسك : أو رجل حالم .
القيصر : ليس الفرق كبيرا .
الناسك : ولكن منا من يحقق حلمه ومن يصحو على كابو
القيصر : وأنا الذى صحا على كابوس وعاش فى كابوس . ل
بجانبى يوم زرت مدينة « شن - تن - بى » فوجدتها
من سكانها ..
الناسك : تقول وجدتها خالية من سكانها ؟
الناسك : نعم نعم . كنت قبل ذلك قد سمعت من أعوا
منها ومن أهلها . حدثونى عن كثرة اللصوص
فيها فأرسلت حملة لتأديبهم .
الناسك : وزاد عدد اللصوص وقطاع الطرق .
القيصر : وعرفت ان الفلاحين والصناع ممتنعون
فأرسلت حملة اخرى .
الناسك : فزاد عدد المساجين والهار
والتعليمات ، وشددت العقو
والمهاجرين .
القيصر : بل خلت المدينة ذات
فوجدت الدور مه
الباردة ، والمزار (يشتد سعاله وأنينه)
والمدينة كأنها ش
والعناكب والغرب لم الى اخر نفس فيه . ولكنه لايحلم
الناسك : أى لم تكن مه . ناد على التابع .
القيصر : بينما أنت فى ه تريده ؟
تحلم وتحلم . بدأ الطريق فأتم الرحلة .
الناسك : كنت هناك تحلم معنى هذا ؟
القيصر : حقا . أحلم أيض أمام شعبى . ناذ على التابع .
على كتفه . ينظر ى) : ايها التابع . ايها التابع .
كالأب الحنون و عم ياسيدى .
ن ياولدى
شيئا ؟
ى ؟
يتمنون أن يطمئنوا عليك قبل از

معهم وتحبهم فيعملون ماتحلم به دون ان تصدر أمرا أو
تنفذ عقوبة . وبينما كانوا يلتفون حولك ويستمعون اليك بغير
ال ان تفتح فمك بكلمة ، كانوا ينصرفون عنى خائفين مذعورين
الذ كما فرت الخنازير الصغيرة عندما اكتشفت ان امها ميتة ..
الذ آه ! كم داعبنى الأمل بأن تأتى معى وتحلم حلمك عندى .
مهم ان تحلمه أنت . لااحد يحلم لغيره .
القيصر بت ان نحلم للصين كلها .
الناسك : لمى ابسط مما تتصور . لست انا الذى حققه . انهم
لاء الذين قابلتهم وتحدثت معهم .
القيصر : كن أن يستمر الحلم ؟ ألا يمكن أن يتحقق فى
الصين جميعا ؟
الناسك : هذا شىء يسأل عنه القياصرة الصفر فى ممالك
القيصر : كنـ قة . لاأضمن أيضا أن يستمر .. حتى فى هذه
الناسك : وهاأنتم هذه النقطة المجهولة على اقصى حدود
القيصر : جئت نادم قيصر اخر فيبدده . ربما يأتى قيصر
الناسك : وقلت لك لادا ن الوجود . أو يرسل اليهم اعوانه
عليه .
القيصر : لن يريحنى هذا من بلا عودة كما هاجر سكان
الناسك : (يسعل سعالا شديدا يوم .. المهم ايها القيصر ان
القيصر : اننى اراه امامى واشا حلم .. وحتى النفس الأخير
الناسك : وهل تشعر بأنها انفاسه بشدة) .
العكاز) ساعدنى كى اش الآن سواء .. اننى أرى
قريتى .
القيصر : لاترهق نفسك . لقد اعيها لتلقينى فى حضنها
أهلها .
الناسك : أرجوك .. ساعدنى .
القيصر : (يساعده على النهوض منذ سنين . يخافه الطائر
امام النافذة ويطل على ه الصدر .
يقول : هذه معجزة لايا

الناسك : الحلم البسيط الذى يقدر عليه الحاكم والمحكوم .. (يسعل بشدة يتغنى بالكلمات التالية التي يتخللها الأنين والسعال) .

أحلم أم ألمس جذر الأرض
واتنفس إيقاع الأرض
ويتحد النبض مع النبض
أحلم أن أرغب فى شىء واحد
ان لاتملكنى الرغبة فى الشر ولا الخير
ان اسكن فى قلب العالم
كالغصن الميت فى حضن الموت
ووحيدا يغشانى الصمت
كالقارب فى ضوء القمر
كالراقد فى ظل الشجر
يتأمل فى مسقط أو صخر
وطريقى سهل صعب .
أوله هو آخره
ونهايته يبدأ منها السير
فطريقى نبع ومصب (يشتد سعاله وأنينه)

القيصر : أرجوك . عد الى الفراش .

الناسك : لاوقت للنوم . ان مثلى يحلم الى اخر نفس فيه . ولكنه لايحلم لنفسه فحسب . ارجوك . ناد على التابع .

القيصر : سأفعل . ولكن لماذا تريده ؟

الناسك : ألم تسمع من يقول : بدأ الطريق فأتم الرحلة .

القيصر : ربما سمعته . ولكن مامعنى هذا ؟

الناسك : معناه أن أواصل الحلم أمام شعبى . ناد على التابع .

القيصر : (يتجه الى الباب وينادى) : ايها التابع . ايها التابع .

التابع : (يظهر على الباب) : نعم ياسيدى .

الناسك : تعال يالو ـ شون . تعال ياولدى

التابع : أمرك يامعلمى . هل تريد شيئا ؟

الناسك :-أما زال أهل القرية هناك ؟

التابع : وينتظرون طلعتك ياسيدى . يتمنون أن يطمئنوا عليك قبل ان

يغمض النوم عيونهم .
الناسك : وأنا ايضا ياولدى . أريد أن أطمئن عليهم قبل أن يغمض النوم عينى هيا . هيا .
التابع : ماذا تريد يامعلمى ؟
الناسك : المحفة ياولدى .. هاتها واحملنى اليهم .. هذا الرجل الطيب سيساعدك .
التابع : (وهو يحضر المحفة ويضعه عليها) : وتقول الرجل الطيب ؟
الناسك : نعم ياولدى . لماذا نحرمه من الحلم ؟
التابع : لأول مرة لاافهمك يامعلمى .
الناسك : ولآخر مرة يابني . أريد أن أروى بقية الحلم . أن أتركه أمانة بين ايديكم . من يدرى ؟ ربما تحققونه من بعدى . أو ربما يحققه من لا اعرفه ولاتعرفونه .
التابع : الا هذا القيصر الاصفر يامعلمى . هل يمكن ان تنسى !
الناسك : الفضل له ياولدى . هو الذى جعلنى انسى وابدأ من جديد
التابع : ان كنت نسيت فنحن لاننسى . انهم ينتظرونه هناك . الأفضل لك ايها القيصر ان تختفى .
الناسك : لا، لا ياولدى . سينسون ويبدأون من جديد . وسيحلمون ويحلم معهم : هيا هيا . دعه يحمل المحفة معك . دعه يشاركنا الحلم .
التابع : (وهو يحمل المحفة والقيصر يساعده) : انت الذى يقول هذا ؟
الناسك : أقوله وعليك ان تسمعه وتتعلم .
التابع : اسمع واتعلم . نعم . أما هذا الحلم ؟
الناسك : فتواصلونه بعدى .
القيصر : وانا معكم .. هيا .. هيا .
(يحملان المحفة ويخرجان من الباب . يستقبلهما هتاف من اسفل المنحدر) :
- المعلم .. المعلم ..
- والقيصر الأصفر ..
- القيصر الأصفر ..

- ٧ -

(على الحدود ـ إلى اليسار بيت صغير اشبه بالكوخ ، بالقرب من حاجز خشبي يقطع المسرح بالعرض ، ويرفع بالحبال إلى أعلى أو يخفض إلى أسفل حسب حركة الداخلين والخارجين ـ الى اليمين في عمق المسرح شجرة تين راسخة ، تفرش سجادة ظلها الاسود على الأرض . ويستريح تحتها الحكيم العجوز ودابته السوداء التي يظهر شبحها الباحث عن الخضرة .. الرجل الذى عرفناه فى المشهدين السابقين ـ وهو حارس الحدود ـ يسرع الخطأ على نداء صبي صغير ـ قبل أن يبرز له الصبي ويحادثه نسمع صوتا يلقي الأبيات المتفرقة التالية التي يتجمد الجميع في وقفتهم وهم يستمعون اليها . يتلون الصوت بالوان ودرجات مختلفة حسب المعاني والمشاعر التي تصبها مكبرات غير منظورة) ..

الصـوت : لاشيء أرق من الماء .

ومع ذلك فهو يفتت جلمود الصخر .

الضعيف يهزم القوى .

اللين ينتصر على الصلب .

ولااحد على الأرض يجهل هذا .

ولااحد على الأرض يتبعه .

الصـوت : (بعد صمت قليل) :

الكلمات الصادقة ليست براقة .

والكلمات البراقة ليست صادقة .

الحكيم لايعرف الكثير .

من يعرف الكثير ليس حكيما

الحكيم لايجمع لنفسه شيئا
وبقدر مايعيش لغيره
يزداد ثراء
بقدر مايعطى الناس
يزيد مايملكه .

الصوت : (بعد قليل ـ تزداد نغمته عمقا وانفعالا) :
من يحمل طين العالم .
فهو سيد المملكة .
من يحمل ذنب العالم .
فهو ملك العالم .
وبالوداعة والنقاء والسكينة .
يجعل مملكة الأرض عادلة .

الصوت : (بعد قليل) : سأل الحاكم أحد الحكماء :
علمنى أحكم بالحكمة .
فلقد فسدت مملكتى .
وانهار الحكم .
فالتفت اليه الرجل .
ـ وكان عجوزا
وتنهد وهو يقول :
آه ! ما أبعد نور الفجر !
هل تستطيع ان تحب شعبك وتحكم بلدك .
وتظل مع ذلك مجهولا ؟
هل تستطيع ان تحكم بغير اللجوء الى القوة ؟
وأن تفعل دون أن تتسلط ؟
عاد الحاكم يسأل :
أرجوك ! علمنى أحكم مملكتى !
سكت الرجل قليلا .
غامت عيناه وجفف دمعة .
أطرق ، همهم .

حرك شفتيه وقال :
ان تحكم معناه أن ترعى .
أن تحكم معناه أن تشفى المرضى .
تحمل هم المحكومين على كتفيك .
وتعمل بسلام وسكون .
حتى ليظن الناس بأنك لاتعمل شيئا ؟

الصوت : عاد القيصر يسأل . كلماتك غامضة . أبتهل اليك . أوجز كلماتك فى كلمة .

الصوت : ان تتم عملك ثم تتوارى .
ذلك هو طريق السماء

الصوت : (بعد قليل) :
ومن يخطو على طريق السماء .
فهو وديع كالطفل ساعة ولادته .
آه ! لاشىء أرق من الماء ولاأضعف منه
لكن الماء يفتت جلمود الصخر ..

الرجل : (يتحرك مذهولا) . ماهذا ؟ ماذا اسمع ؟

الصوت : لاشىء أرق من الماء ..
لاشىء ارق من الماء ..

الرجل : (للصبى الذى يلعب بالحاجز الخشبى) : من أنتم ؟

الصبى : نحن الذين نريد أن نعبر الحدود .
وأنت الذى تؤخرنا .

الرجل : ومن الذى قال : لاشىء أرق من الماء ؟

الصبى : قال ذلك العجوز الذى اسوق دابته .
وهاأنت ذا تعطلنا حتى تغرب الشمس
ويحل الظلام فلا نعرف الطريق .
نريد ان نعبر الحدود .

الرجل : تعبرون الحدود ؟ أتظن الأمر بهذه البساطة ؟ لابد من تفتيش متاعكم . لابد من اجراءات ورسوم . تكلم . ماذا

تحملون معكم ؟ ذهب أم فضة ؟ أوانى أم تحف نادرة ؟ مز
خزف أم خشب الصندل .

الصبـي : (ضاحكا) : لاشيء أرق من الماء ..

الرجـل : (غاضبا) واين صاحبك ؟ أين ؟

الصبـي : المعلم العجوز ؟ هناك ! دائما فى ظل شجرة . تذكر قبل ان
تذهب اليه ان الشمس توشك على المغيب .

الرجـل : ومامعنى قوله هذا ؟ مامعناه ؟

الصبـي : (ضاحكا) : أننا سنعبر الحدود اخيرا . ان الانسان
ينتصر على كل شيء .

الرجـل : الانسان ينتصر على كل شيء ؟
نعم . نعم . اذهب انت . اما انا فأريد ان اعرف هذا . ايها
العجوز .. ايها العجوز .
(العجوز ينهض متجها اليه فى خطا بطيئة) .

العجوز : جئت أخيرا ياولدى ؟

الرجـل : عرفت انك متعجل ، تريد ان تعبر قبل حلول الظلام . وأريد
أن اعرف شيئا اخر .

العجوز : انت ايضا ؟ كثرة المعرفة تضيع الحكمة ياولدى .

الرجـل : ولكنها لن تضيع الطريق . بعد غروب الشمس أو شروقها
يظل الطريق هو الطريق .

العجوز : صدقت .. الطريق لايعمل ابدا . وكل شيء يعمل من خلاله
لو استطاع الناس أن يحافظوا عليه لتحسنت احوال العالم .
الطريق لايتدخل فى شيء . ولهذا لايفسد شيئا . لايأخذ
شيئا ، ولهذا لايفقد شيئا .

الرجـل : (ضاحكا) : وتظن ان هذه الحكم تعفيك مما لامفر منه .

العجوز : تعفينى من أى شيء ياولدى ؟

الرجـل : مما يخضع له كل عابر للحدود . لابد من تفتيش المتاع .
لابد من دفع الضريبة .

العجوز : الضريبة ؟ على العجوز الذى لايملك شيئا ؟ أم الدابة التى
تبحث عن نبتة عشب ؟ أم اليتيم الذى لم يخلص لى سواه ؟

الرجــل : لاشيء ارق من الماء ولااضعف منه . مع ذلك .

العجوز : على الكلمات ؟ ماذا تأخذ ممن لايملك الا الكلمات ؟ سوف نذهب جميعا ياولدى . ستبلى عظامنا ويسحق التراب الذى تخلف منا ، كما ذهب الحكماء والابطال القدماء . ربما لاتبقى الا كلماتنا . وربما تندثر هى أيضا كما اندثرنا .

الرجــل : حتى ان وجدت من يسمعها ؟

العجوز : كم سمعها الكثيرون . المهم أن تجد من يعيشها ، ويحولها اعمالا.

الرجــل : بشرط ان يفهمها اولا . لاشيء ارق من الماء .

العجوز : هل تراها غامضة ؟

الرجــل : ليست أشد منك غموضا .

العجوز : كان الحكماء كذلك ياولدى . منذ القدم وهم يتهمون بالغموض والذين يتهمونهم يبررون حمقهم وظلمهم .

الرجــل : ربما بلغ عمق الحكيم حدا يستعصى معه الفهم .

العجـوز : ولأن أحدا لم يستطع أن يفهمه . لذلك يقول كل من يراه :

هو حذر ـ كأنه يعبر نهرا متجمدا فى الشتاء ،
خائف ـ كأنه يخشى الناس من حوله ،
متسامح ـ كأنه الثلج عندما يذوب ،
عنيد ـ كأن آباءه هم الوحوش ،
أصيل ـ كأنه خشب لم تمسسه يد ،
واسع الصدر ـ كأنه وادى النهر ،
مرح ـ كمن يتسلق برجا فى فصل الربيع ،
مضطرب ـ كأنه دوامة من الماء العكر
آه ! من يستطيع ان يهدىء الدوامة حتى تصفو ؟
من يستطيع أن يحرك الساكن حتى تعود اليه الحياة ؟
آه ! العالم يسير فى اتجاه مضاد للطريق
والطريق فى اتجاه مضاد للعالم .
فمن يعيد التائه والشارد والضال ؟

الرجــل : ليس غيرك .. يامن تمتلك الطريق !

العجوز : (فى أسى وهو يجلس على حجر كبير) : أمتلك الطريق :
من يمكن ان يزعم هذا ياولدى ؟
الرجل : من يريد السير عليه قبل حلول الظلام .. لابد انه يعرفه .
العجوز : يريد ويعرف ؟ . ليت الأمر كما تقول . المهم أن تكون انت الطريق والعالم .
الرجل : ومن غيرك ايها الرجل الغامض ؟
(ينحنى أمامه ثم يجلس على الأرض عند قدميه - الحكيم يتأمل ملبسه الفقير وجسده الهزيل - ثم يواصل حديثه معه فى تعاطف) .
العجوز : لاأدرى يابنى . ربما اكون قد اضعته من كثرة مابحثت عنه . ومن أضاع الطريق اصبح هو والضياع شيئا واحدا .
الرجل : هل تعنى بذلك انك ماتزال تبحث عنه ؟
العجوز : وربما يتحتم علىَّ أن أبدا من البداية . بالرغم من شيخوختى المرتعشة على حافة الموت ، ومن سفرى الآن الى منفى جديد .
الرجل : هل افهم من هذا انك تعبر الحدود الى مملكة اخرى .
العجوز : بل أعبرها الى ضياع جديد - فبعد ان نفيت نفسى فى جلدى وقنعت بالتأمل والتعليم ، اكتشفت ان جسدى لايزال موجودا ، وانه لايزال عرضة للبتر والجلد والحرق والتشويه .
الرجل : (يضحك بصعوبة) : ولهذا قررت أن تترك القيصر الذى كنت تعمل عنده لتذهب الى قيصر جديد .
العجوز : حيثما ذهبت وجدت القيصر الاصفر امامك .
الرجل : تقول القيصر الاصفر ؟
العجوز : نعم . نعم . فى كل مكان قيصر أصفر . فى كل مكان طاعة وعقاب . ولهذا تضيع الحكمة بين ممالك الصين .. هل تسمع ياولدى اخر اغنية لى ؟
الرجل : (مناديا) : تعال ايها الصبى ! تعال نستمع الى اغنية

سيدك الهارب من منفاه .

العجوز : لمنفى اخر لن يلبث ان يهرب منه الى المنفى .. (يضحكان) دع الصبى يلعب . لقد أضناه السفر .. بينما انا فى الطريق الى هذا المكان ، اسأل كل عابر عن الحدود ، اذا بالليل يخيم علينا ، أنا وهذا الصبى اليتيم والدابة السوداء ، فى وادٍ قحل تصفر فيه الريح وتعوى الذئاب ، كانت علامات الارهاق واضحة على وجه الصبى ، وكان الجوع الى النوم والطعام الدافىء يطل من عينيه ويصوب سهامه الجارحة الىَّ . وتجشمت مشقة الصعود الى اعلى ربوة قريبة ، وحالفنى الحظ فرأيت نوافذ يلمع فيها الضوء ، بل تناهت الى اذنى اصوات غناء وصيحات فرْح وعزف على الناى والمزمار والاوتار والدفوف . وتأكدت انه عُرس فى قرية غير بعيدة . بشرت الصبى بالوجبة الساخنة ، وربت على رقبة الدابة التى فهمت ماأريد فاتجهت من نفسها فى اتجاه الاضواء والصيحات . وعندما اقتربنا نزلت عن الدابة واطلقتها مع الصبى قائلا له : اذهب ياولدى . الناس هنا طيبون . وعندما تضع يدك فى الطبق الكبير لن يسألوك عن اسمك أو وجهتك . اذهب ياولدى وارقص مع الأولاد وغنى ، وخذ الدابة ايضا فلن يبخلوا عليها بالعلف والماء . ان سألوك عنى ؟ قل لهم سيدى حكيم عجوز . هناك فى اسفل الجبل . يتعبد ويرتل الدعوات . اذهب ياولدى . اذهب . لدىّ فى الجراب مايكفينى . وحبست دموعى وانا ارى الصبى على ظهر الدابة المنحدرة الى العرس . وانطلق لسانى بالاغنية التى سأقولها لك بغير ترتيب :

آه ! ما أبعد الفجر !

الناس جميعا فرحون

كأنهم يشاركون في وليمة .

كأنهم ذاهبون الى مهرجان الربيع
انا وحدي ارقد فى سكون
أشبه بطفل صغير
لم يبتسم مرة واحدة فى حياته
اترنح واتمايل
كأنني اضعت الوطن والطريق
كل الناس لديهم مايكفيهم
انا وحدى تعريت عن كل شيء .
كل الناس لامعون .
أنا وحدى منطفيء معتم
كل الناس واثقون من انفسهم
انا وحدى متعب حزين القلب
ثائر ثورة البحر
مضيع كأنى بلا هدف
وأنا وحدى غير الآخرين
أنا وحدى امجد الأم الأرض

الرجــل : جميل . جميل ان يتذكر الابن الضائع أمه .

العجوز : نعم ياولدى ..

وتذكرت الأم الأرض
أو الأرض الأم
وتأملت الكل حوالىّ
وكانت تعمل فى صمت
تعمل فى صمت
لايعنيها العدل أو الظلم
ولايعنيها الميلاد أو الموت .

شيء واحد راح يلح علىَّ فى تلك اللحظة . أن أخرج من ممالك الصين . ان لاألقى قيصرا أصفر ولااضطر للعمل معه . وبكيت لأن حياتى لم تكن الا رحلة من مملكة الى

مملكة . من حطام اتركه ورائى الى حطام اراه امامى . فى كل بلاط غدر وخيانة . فى كل نظام ختل ورياء . ذل وهوان ، وعذاب وعقاب . والكلمة للأوغاد السفاحين . للقتلة والدجالين لصوص الأرض لصوص العدل لصوص القوت المحتالين .

الرجـــل : وكلماتك ؟ الم تستطع كلماتك ان تصلح اميرا أو وزيرا ؟

العجوز : كانت تهرب كقطيع مذعور من انياب ذئاب . كحمام غادر عشا دهمته نسور وأفاع . لابد انك تكتم حتى الآن سؤالا يضنيك : من أنت !

الرجـــل : نعم . نعم . من أنت ياسيدى ؟

العجوز : يسموننى المعلم العجوز . واحيانا يسموننى الرجل العابس المقطب الجبين يكفى أن تعلم أنهم كانوا يطلقون عليَّ لقب الحكيم . فى كل مملكة تفتح ابواب القصر لتستقبلنى الأوجه بالبسمات . وفى كل مملكة تودعنى بعد أيام أو أشهر أو سنوات باللعنات . واتوقف عند بوابة المدينة لأجفف الدموع المنحدرة على خدى . ربما كانت دموع الحزن على فشل حكمتى ، أو دموع الفرح لاننى خرجت منها ورأسى لايزال على كتفى . وتركتها ماشيا على رجلى فلم تبتر اصابع يدى وقدمى ولم يحرق وجهى باسياخ الكى المشهورة .

الرجـــل : تقول لم تبتر اصابع قدميك ولم يحرق وجهك ؟

العجوز : نعم . نعم .. ولم اعلق من مشنقة فى السوق .. ولكن لمـاذا تسأل ؟

الرجـــل : آه ! لاشىء . لاشىء ... اكمل . اكمل .

العجوز : اكمل قصة يعرفها كل طفل فى المدرسة ؟ أتلو عليك كلمات يحفظها كل تلميذ صينى ويتعلمها كذلك كل امير صغير . لكن لايعمل بها احد ولااحد يكترث بالمعلم العجوز . وماذا ننتظر من رجل عابس الوجه مثلى يقول فى كل بلاط ويردد

لكل حاكم وامير : الوداعة والسلام ! النقاء والتواضع ! لاتتسلط ! وسيتم كل شيء ! العالم وعاء الله ، من يتدخل في مجراه يفسده . من يتمسك به يفقده ! تريد أن تكون حكيما ونبيلا ؟ الحكيم يتجنب التطرف . يتجنب التهور . يتجنب الخيلاء ! هل تطلب الوفرة ؟ بالاستغناء ! تطمح ان تصل الى الذروة ؟ عش فى عمق الاعماق ! لامس جذر الكون ! تطمع فى ان تتقدم الجميع ؟ كن فى اخر الصفوف ! تتطلع للانتصار ؟ لاتلجأ للقوة ! واذا اضطرتك الضرورة المؤسفة للحرب ، فأتم المعركة واختف عن الانظار ! تتمنى ان تصبح سيد المملكة ؟ لاتمثل دور السيد ! هل تصبو لرضاء الشعب ؟ اجعل اطعمة الناس شهية . ثيابهم جميلة . مساكنهم مطمئنة ، حياتهم فرحة ، وعندما تتحد مع الطريق ، يعود كل شيء الى وحدته مع كل شيء ، عندما تستقر فى الصفاء والسكينة ، ترجع الارض والسماء من غيبتها . عندما تصبح انت الطريق والعالم . ويصبح الطريق والعالم انت ، ستمطر السحب ، وتفيض الينابيع والانهار ، وتنتج الأرض انواع الحبوب الخمسة ، وتمتلىء بطن الشعب ويفرغ عقله من الشهوات . هل تعلم ماذا كان حظى فى مملكة تشو ؟

الرجــل : تلك التى ارادت ان توحد ممالك الصين ؟

العجوز : نعم . بالقوة ارادت هذا . فاشاعت فى عصرنا المضطرب المزيد من الاضطراب ، ومزقت الصين الممزقة الى اشلاء .

الرجــل : وماذا كنت تعمل هناك ؟

العجوز : العمل الذى يصون طريق الحقيقة ويحميه . العمل الذى يليق بسليلة الحكماء القدماء .

الرجــل : اراهن انك كنت مستشار القيصر !

العجوز : وكيف اشير على قيصر لايستشير ؟ لقد كنت امين

المخطوطات والمحفوظات استخرج منها الحكمة واقدمها له .

الرجـــل : وهل تقبلها منك ؟ هل عمل بها ؟

العجوز : وماذا تنتظر من مأفون يحلم بأن يفيض النهر الاصفر بالدم ليروى اراضى الصين الجدباء ؟ كان يريد التوسع ، فراح يطارد شبح المجد الهارب باستمرار . هل تعرف ماذا كان يطلب منى بعد كل معركة ؟

الرجـــل : ان تعالج بحكمتك جروحه وجروح جنوده ؟

العجوز : بل ان اصبح قائده الأعلى !

الرجـــل : (ضاحكا) أنت ؟ قائد جيشه ؟ بالوداعة والسكينة ؟ وبالفعل الذى لايفعل ولايتدخل ولايلجأ للعنف والغلظة ؟

العجوز : نعم .. نعم . ولهذا كرهنى ثم هددنى بالعقاب . كنت اقول كلما سمعته يتكلم عن جيوشه :

حيث تكون الجيوش
تنمو الاشواك والاحراش
وبعد المعركة العظيمة
تأتى السنوات العجاف ..

وكلما تحدث عن انتصاراته ارفع صوتي وأقول :

القائد الحكيم يصل الى هدفه ثم يتوقف
ينتصر مدفوعا بالضرورة المؤسفة
ينتصر ولكن لايمجد نفسه
يكسب المعركة ثم يختفى من المدينة
حتى لايظهر فى موكب الاحتفال

وكلما تكلم عن الاسلحة وطالب بصنع المزيد منها وقفت فى وجهه وحذرته :

الاسلحة ادوات الشر
لذلك لايسكن الحكيم بالقرب منها ،
الاسلحة أدوات الشر
والحكيم لايلجأ اليها الا مضطرا

اذا انتصر لم يجد فى الانتصار جمالا
لان من يجده جميلا يفرح بالمذبحة
ومن يفرح بقتل غيره من البشر
لايصح ان يكون سيد المملكة

الرجـــل : من حسن حظك انه لم يستخدم اسلحته معك ..

العجوز : ومن سوء حظ الشعب انه استخدمها . اخذ يزدرد اوهام المجد ويلتف باكفانه البراقة . واخذ الناس يلتهمون الجوع ويتغطون بالعرى ويتداوون بالأمراض والأوبئة وخزعبلات السحرة والكهنة . وقويت شوكة اعدائه الذين ظن انه هزمهم واذلهم فانتقموا لهزيمتهم ، ثم لم يلبث ان جمع جيوشه وعاد ينتقم من الذين انتقموا منه ... وتركت المملكة التى تحولت الى مقبرة هائلة وحملت اوراقى ومتاعى على عربة يجرها ثوران اسودان . كنت قد انقذت ما امكنى انقاذه من حكمى واشعارى واقوالى لقيصر « تشو » ولغيره ، وظننت اننى استطيع اخيرا ان الجأ للمنفى واعيش حياة معلم مجهول . وعندما مررت على ابواب مملكة « تسى » فوجئت بقيصرها الاصفر ومعه رجال دولته فى استقبالى ..

الرجـــل : تقول قيصرها الاصفر ؟

العجوز : نعم . نعم . لماذا تكرر سؤالك ؟

الرجـــل : لا .. لاشىء .. حسبته هو القيصر الذى يبتر اصابع الحكماء ويحرق وجوههم حتى تصير كالفحم ..

العجوز : سمعت انه يفعل هذا واكثر منه ..

الرجـــل : أكمل .. أكمل ..

العجوز : خيل الى أن الدولة كلها فى انتظارى . رحت انظر فى وجوه الوزراء والأمراء والقواد والأعيان والمؤرخين والعلماء بحثا عمن يكون هو القيصر . ولما لاحظ الجميع قلقى شدنى احدهم الى السور واشار الى رجل ضامر كالجرادة يجلس فى برج عال ويتطلع الى الافق كأنه ينتظر المجهول القادم

من بعيد . همس فى اذنى شيخ كبير استطاع ان يحتفظ بوجه طفل غرير : ها هو ذا . ينتظر والدولة كلها تنتظر معه . سألت : وماذا ينتظر ؟ قال هو يبتسم فى حزن : ينتظر الحكيم الذى يأتى ومعه الانقاذ .. هتفت . الانقاذ ؟ من أى شىء ؟ رفع الشيخ حاجبيه دهشة وقال : من أى شىء ؟ ألم تسمع بما حدث فى مملكة « تسى » ؟ ألم يرو لك احد عن مصيبتها ؟ قلت : المصائب فى ممالك الصين تزاحم الغرائب . ربما لاتكون مصيبتكم اعظم من غيرها . هز رأسه مرات ومرات ومط شفتيه وشد التجاعيد البارزة على جبينه قبل ان يقول : لا .. لا .. ليس لها نظير .. لايمكن ان يكون لها نظير فى ممالك الصين ولاغير الصين . قلت : تكلم ياسيدى . وستعرف منى انها ليست اعجب المصائب ! وحاولت ان ابتسم فردعتنى السحب التى تلبدت فى عينيه وعلى وجهه . قال وهو ينظر الى بعض وجوه الدولة الذين تجمعوا حولنا واحسست من ملامحهم انهم يستجيرون بى دون ان يكتموا يأسهم الدفين : هل تعلم ان سكان « تسى » بدأوا يتركونها ويهاجرون منها ؟ هل تصدق ان مدينة كاملة قد خلت ذات صباح من سكانها ولم يبق فيها حتى الشرطة والموظفين . لم يتخلف فيها حتى القطط والكلاب ؟ ابتسمت وقلت : بالطبع .. مادامت تستطيع ان تعيش بعيدا عن البشر . ولكن لماذا حدث هذا ؟ رفع رأسه فى حزن الى اعلى وهمس فى اذنى : اسأل هذا الواقف هناك ! قلت : انه مشغول عنا بسؤال الكواكب والنجوم . دمدم الشيخ قائلا : وهذا قبل ان تغرب الشمس . فما بالك بسهرنا حوله كل ليلة ؟ سألت : وماذا يريد ؟ قال رجل نحيل مد رأسه بيننا وبدا على عينيه التعب من النظر فى الكتب والأوراق : هل يعرف احد ماذا يريد ؟ لقد امرنا ان نكون معه فى استقباله . سألت : من تقصد ايها العالم الجليل ؟ ضحك ضحكة خافتة كأنه يشهق وقال : لو كنت استحق هذا

الوصف لقلت لعله ينتظر من ينقذه بعد ان تأكد من غرقنا وغرقه . ابتسمت وانا امر بعينى على وجوههم الحزينة وشفاههم المزمومة التى توشك ان تطلق استغاثة : اذن فهو يحتاج الى بحارة وملاحين ! قال الشيخ : بل يحتاج الى امثالك انت ! سألت متعجبا : امثالى انا ؟ قال : نعم نعم . من الحكماء المتجلين . ضحكت مستنكرا : ومن ادراكم اننى كذلك ؟ هل خلا بلاطه من الحكماء ؟ قال الشيخ كأنه يستخرج صوته من جب عميق : لا لم يخل ابدا من الحكماء . ولكنه لم يستمع لنصحهم يوما . بل تفنن فى عقابهم والتشهير بهم . ومنذ ان جاء الينا ذلك الناسك الشاب وهو نادم على مافعل معه . سألت : ناسك شاب ؟ ونادم على مافعله معه ؟ قال رجل رزين قصير القامة ظل حتى ذلك الحين صامتا : رئيس الوزراء يقصد مافعله مع الجميع . لقد حكم عليه ببتر اصابع قدميه وحرق وجهه . ثم اختلى به بعد ذلك طويلا قبل ان يتحول . سألت : يتحول الى ماذا ؟ قال الرجل : ربما الى حكيم أو ناسك مثله . لاندرى تماما . فهو منذ ان رحل ذلك الناسك الشاب لايكف عن السؤال : متى يعود ؟ متى اراه ؟ من يجيب على السؤال الذى يعذبنى ؟ سألت باهتمام : وماهو السؤال الذى يعذبه ؟ قال الرجل بعد ان اطرق برأسه طويلا : السؤال الذى يعذب كل القياصرة الصفر : كيف احكم المملكة . كيف احكم المملكة ؟ ولذلك فهو منذ ان ذهب الناسك الشاب ينتظره وينتظر الجواب . قلت ضاحكا : الانتظار وحده لايكفى . قال الشيخ صاحب الوجه المستدير : انك لاتدرى كم تحول . لقد خلع التاج والرداء الاصفر وهام على وجهه دون طعام أو شراب . تنقل بين البلاد وعبر الصحارى والانهار والوديان وتسلق الجبال فى الصيف والشتاء . سألت : بحثا عن ذلك الناسك أم عن الجواب ؟ قال الرجل فى حزن : لم نعد قادرين على الرد

على هذا السؤال ؛ لاننا نسأل انفسنا ايضا باستمرار .
• ويمكنك أن تتصور كيف ساءت الأحوال فى البلاد . وكيف عجزنا عن تهدئته واقناعه بالاستقرار على عرشه والاهتمام بأمر مملكته وشعبه . قلت : ألم يفعل ذلك دائما ؟ قال الرجل : وكانت النتيجة كما ترى . الشعب يترك بيته وحقله . وعمله ويهاجر . قلت : لم أسمع ان هذا قد حدث فى مملكة اخرى . ولكنه كذلك لايفاجئنى . ألم يتبع نظام الطاعة والعقاب ؟ ألم يكثر من القوانين والاوامر والتعليمات ؟ ألم يتسلط على العالم والمخلوقات ويصم اذنيه عن نصائح الحكماء ؟ ان هذا كله لايفاجئنى لقد عرفته ورأيته فى كل الممالك التى زرتها . ولولا عناية السماء لرأيتمونى مبتور الاصابع أو مقطوع الساقين والذراعين أو محترق الوجه أو لم ترونى على الاطلاق . هذه هى النتيجة الطبيعية ايها الوزراء والعلماء والوجهاء . ولذلك تروننى على الطريق الذى لايرجع من يسير عليه . قال الرجل فى غير حماس : مرارة صوتك تكشف عن حكمتك المرة . هل معنى هذا انك لن تبقى معنا ؟ قلت : ولم أفكر فى ذلك ياسيدى . لقد مررت ببلدكم وسأخرج منها كما دخلتها . قال الشيخ : ونحن لانستطيع ان نمنعك . لقد داعبنا الأمل مما قاله الرسل الذين التقوا بك وسألوك .. قاطعته قائلا : نعم . لقد قطع طريقى بعض الفرسان وسألونى عن ذلك الناسك الشاب . قلت لهم : اى ناسك ايها الفرسان ؟ لقد علمت فى حياتى الطويلة عشرات النساك ..

الرجـــــل : وتركت المملكة كما دخلتها ؟

العجـــوز : ولماذا ابقى وانا لست الناسك الذى يبحثون عنه ؟

الرجـــــل : ألم تسأل نفسك ان كان قد مر عليك يوما ؟

العجـــوز : سألتها ياولدى . ولكن عشرات النساك قد مروا على . بعضهم لبث معى سنوات ، وبعضهم اشهرا معدودات .

ومنهم من لم يتحملنى ولاتحمل حكمتى ساعات فأدار ظهره ولم يعد الى اليوم !

الرجـــل : هل فكرت فى اسم ذلك الناسك ؟

العجــوز : وكيف لعجوز مثلى ان يتذكر الاسماء ؟ ان تلاميذى كثيرون اكثر مما تتصور أو تحتفظ به ذاكرتى الواهنة .

الرجـــل : ومين ـ كين ـ وو ؟ الا يعنى هذا الأسم لك شيئا .

العجــوز : ماذا ؟ مين ـ كين ـ وو ؟ لالا لااظن .. لااتذكر

الرجـــل : الناسك الشاب الذى بترت اصابع قدميه واحرق وجهه حتى تفحم ..

العجــوز : لم يكن هو الوحيد الذى جرى له هذا ، ان كنت تعرفه فهنئه على حسن حظه .

الرجـــل : ماذا تقصد ايها العجوز .

العجــوز : غيره علق على المشنقة ، أو ألقى فى جب الحيات والعقارب ، أو مات مسموما بيد اخلص الاصدقاء ، أو وضع فى القدر النحاسى الكبير وغلى فى النار ، أو سحقت اعضاؤه وفتتت احشاؤه ، أو رجم بالحجارة علنا فى السوق امام الناس ، أو رميت جثته بعد التمثيل بها فى مياه « يانج تزى » أو ربط الى اربعة جياد اندفعت فى اربع اتجاهات ومزقت جسده اربا . ابحث ياولدى فى السجلات والمحفوظات وذاكرة العجائز من امثالى لتعرف اسماء الحكماء الفضلاء : اسماء شهانج يانج ، وتا آو شى ، وباى ـ لى ، و وو ـ تشى ، وكوان ـ لونج ـ بنج ، وين ـ تزو ـ تشى ـ وتيين ـ بنج ، ومى ـ تزو ـ شين .. ألم يكونوا شرفاء فضلاء ؟ ألم يكونوا حكماء مبجلين ؟ ألم يحاولوا هداية القياصرة فى كل بلاط ، ألم يصل بعضهم الى اعلى المناصب فى الدولة ويحقق اعظم الاصلاحات ؟ وتأتى انت الآن لتسألنى عن صاحبك .. ماذا قلت .

الرجـــل : مين ـ كين ـ وو .. ولكنى لااسألك فقط .

العجــوز : وماذا تريد ان تقول ؟
الرجــــل : أريد أن أقول أنه هنا.. هنا فى المكان .
العجــوز : (ضاحكا) : حيث لاقصر ولادولة ولابلاط ؟ فى هذا المكان الموحش البعيد على حدود الصين .
الرجــــل : نعم .. نعم . فى هذا المكان الموحش البعيد .. بالقرب .. من هذه القرية البسيطة المجهولة التى يعيش فيها اناس بسطاء مجهولون .
العجــوز : وماذا يمكن ان يفعله هنا ؟
الرجــــل : المعجزة ايها العجوز ! المعجزة !
العجــوز : ماذا تقول ؟
الرجــــل : المجتمع الامثل الذى عشتم وعلمتم وتعذبتم من اجله . الجماعة التى تجانست مع الطبيعة والانسان ..
العجــوز : واتحدت بالطريق نفسه .
الرجــــل : وجسدت الطريق نفسه .
العجــوز : آه ما أبعد الفجر ! انك تعبث بى .. (يسمع صوت ينادى : ياحارس الحدود .. ياحارس الحدود .. ينهض الرجل وهو يقول) : .
الرجــــل : ليس الفجر بعيدا ايها الشيخ
الصــوت : تعال .. تعال ياحارس الحدود .. تعال ومعك الحكيم العجوز ..
الرجــــل : (للعجوز) : سمعت ؟
العجــوز : حقا! حقا! وكيف عرفوا اننى هنا ؟
الرجــــل : بل قل كيف عرف أليس هو المتجلى ؟
العجــوز : محتمل ياولدى .. محتمل .
الرجــــل : هيا أيها الحكيم .. تعال نراه .. هيا قبل ان يتأخر الوقت .
العجــوز : ايتها السماء(يضرب جبهته بيده) هل هذا ممكن ، ايكون هو ذلك الطائش المسكين الذى حذرته يوما من طيشه وانا اقول : الوداع ياولدى .. كم اخاف عليك .

الرجـــــل : يمكن ايها العجوز .. ليس فى مملكة الصين مستحيل

العجـــوز : اه ! ما أبعد الفجر .

الرجـــــل : بل ما اقربه ياشيخ ! مااقربه !

(يسمع صوت الصبى آتيا وهو يجرى ويقفز ويغنى فى مرح)

الصبـــــي: لاشيء ارق من الماء

لاشيء ارق من الماء .

الرجـــــل : تعال يابنى .. سنذهب قليلا ثم نعود لنكتب هذه الحكمة وغيرها .. أليس كذلك ايها الحكيم .

العجـــوز : نعم ياولدى .. ومادمت تريد .

الرجـــــل : (وهو يربت على رأس الصبى) : هيا .. ادخل انت فى هذا الكوخ الصغير .. اعد الحبر والريشة والدواة .. لن نتأخر عليك ..

العجـــوز : نعم يابنى .. لن يتأخر عليك .

الرجـــــل : هيا ايها الحكيم .. هيا قبل ان يتأخر الوقت .

(ينصرفان وهما يلوحان للصبى)

● ● ●

- ٨ -

(الناسك راقد على المحفة التى يدفعها تابعه ويعاونه القيصر الأصفر . يتوقفان بها فى منتصف المسرح ، بينما يتوافد افراد الجماعة القروية الذين رأيناهم فى المشهد الخامس ويتحلقون حولها واحدا بعد الآخر . يسيطر الوجوم على الجميع ويسودهم شعور بالموت المقترب) .

التــابــع : تمهل ! رفقا به ..

القيصـــر : انه غارق فى نومه ..

التــابــع : أو فى ألمه . كم قاسى منه ويقاسى الآن ..

القيصـــر : أرجوك . لاتقلب جروحى .

التــابــع : انت الذى تقول هذا ؟

القيصـــر : ليتك تشعر بى . ثم انه قد عفا عنى .

التــابــع : عفا عنك ؟ هذا الوجه المتفحم ، هل يمكن أن يعفو عنك ؟ (يكشف الغطاء عن قدمى الناسك) هاتان القطعتان من اللحم الدامى منذ سنين .. هل يغفران لك ؟

القيصـــر : لست ألومك . ولكنك لم تكن معنا .

التــابــع : لقد امرنى ان اغادر المكان واستجبت لأمره . ومع ذلك تخطىء اذا تصورت اننى لم اكن معكما ..

القيصـــر : ولم تسمع مادار بيننا .

التــابــع : وهل يصعب علىَّ ان اتخليه ؟ انك تركع على فراشه وتطلب منه الصفح . وهو كعادته يمد اليك يد قديس ويقول : انهض فقد صفحت عنك .

القيصـــــر : لم يكتف بهذا . لقد شكرنى لاننى وضعت قدميه على
الطريق .. وكلما انهمرت دموعى على يديه شد على
يدى وقال : نحن الآن صديقان ..
التـــابــع : ربما يكون لهؤلاء رأى آخر ..
القيصـــــر : (وهو ينظر مفزوعا الى القرويين الذين يتقدمون واحدا
بعد الآخر) : أرجوك .. أرجوك .
التـــابــع : ياأبناء القرية .. لقد أمرنى سيدى ان اجمعكم فى هذا
المكان ليلتقى بكم ..
رجـــــــل : ونحن ننتظر هذا اللقاء منذ أيام وليال فى أسفل
الجبل ...
رجـل آخـر : ونصحو وننام على صوته الذى اشتقنا اليه .
رجـل ثـالث : وصورته التى لم ارها ابدا عن قرب .
امـــــرأة : لأن نوره كان يغشى أبصارنا .
امـــــرأة : وظننا ان وجهه هو الذى احرق جلده .
التـــابــع : (فى غلظة) : بل احرقه جلاد يمسخ وجه ضحيته
بمشئية جلاد اخر ..
رجـــــــل : كنا نشعر بهذا الظلم . كنا نحس ان خلف الغطاء
المنسدل على وجهه جريمة ..
امـــــرأة : انا وحدى احسست بألمه .. وبأن النور الطالع منه اخر
انفاس الشمعة .
امرأة أخرى : أو اخر ضوء يسطع من جسم شهاب محترق يهوى
للأرض .
رجـــــــل : وكفانا النور فلم نسأل انفسنا : من أضرم تلك النار .؟
التـــابــع : مهلا .. مهلا .. ستعرفون عندما يحين الوقت .
رجـــــــل : (يقترب من الناسك وينظر اليه) : ومتى يحين ؟
رجـل آخـر : (يقترب ويضع يده على المحفة) : بعد أن يذهب
الطفل السماوى ومعه جراحه ؟
رجـل ثـالث : ويقضى عليه السم الذى فتك بكل لحظة من حياته ؟
امـــــرأة : السم .. نعم .. نعم .. هذا هو الذى صبه الطغاة فى دمه

ولم تنفع معه الاعشاب الصفراء .

رجـــــل : متى يحين وقت الانتقام .

التــابــع : الانتقام ؟ لقد علمكم ان تحبوا ـ لم يعلمكم ان تنتقموا ..

رجـــــل : نريد ان ننتقم حبا فيه .

رجـــــل : بيدى .. سأخنقه بيدى .. هاتان اللتان حاولتا يوما ان تسرقا امتاعه يمكن ان تتحولا الى يدىّ جلاد ..

امـــــرأة : وقبل ان تخنقه لابد ان تمسخ جلده وتقطع اصابع قدميه .

الرجـــــل : ليتنى اضع يدى عليه ..

التــابــع : كيف تتكلمون عن الخنق والمسخ والقطع وانتم فى كنفه ؟ هل هذا هو الحب الذى شع عليكم منكم ؟ انتظروا حتى يتكلم بنفسه ..

امـــــرأة : ننتظر والمتهم أمامنا ؟

رجـــــل : المتهم أمامنا ؟

رجل ثـالث : فلنبدأ بمحاكمته .. لم لانبدأ ؟

امـــــرأة : ها هو يخفى وجهه ..

امرأة أخرى : يرتعش كصل افرغ سمه ..

امرأة ثالثة: القيصر الأصفر !

أصـوات متداخلة : (يتقدمون من القيصر الاصفر الذى يتجمد رعبا ـ يسرع التابع لانقاذه من ايديهم ويصيح بهم) :

التــابــع : انتظروا .. قلت لكم انتظروا

صـــــوت : ماذا عندكم لتدافع عنه ؟

التــابــع : انا لااتهم ولاادافع .. انما اقول لكم ماقاله معلمى منذ ايام .. اجمعهم ياولدى فى يوم واحد .. يوم يحضر القيصر الاصفر والمعلم العجوز .. وعندما امرنى ان أنادى عليهما عرفت انهما قد حضروا ..

صـــــوت : هل تتكلم عن الغاز؟

صـــــوت : هل كانت نبوءة ؟

صـــــوت : الناسك فى بحر النوم . من يضمن ان يصحو من نومه ..

التــابــع : سيصحو وسيروى حلمه ..

صـــــوت : وسنعرف منه من ظلمه .

التــابــع : وكذلك من علمه . من لقنه الحكمة .. ها هو ذا قادم ..

(يلتفت الجميع ناحية العجوز الذى يلهث صاعدا المرتفع الصخرى وحارس الحدود يأخذ بيده) .

التــابــع : ابتعدو .. ابتعدوا .. هذا الشيخ سيصدر حكمه .

التــابــع : مرحبا ايها العجوز .

(يوسع الجميع مكانا للمعلم العجوز وحارس الحدود .. التابع يأخذ بيد العجوز الذى يندفع نحو المحفة) .

التــابــع : انه ينتظرك .. منذ ان حضر الى هذا المكان وهو ينتظرك .

العجـــوز : (على رأس الناسك) : ولدى .. هل يمكن أن يكون هو ولدى ؟

التــابــع : لم تكذب رؤياه ولم يخطىء نوره .. فمنذ ايام وهو يهتف باسمك ويناديك .

العجـــوز : هل قال بأني سأعبر من هنا ؟

التــابــع : وانكما ستلتقيان وتتحدثان ..

العجـــوز : حقا ياولدى .. صدقت رؤياه ورؤياى ..

(يتأمل وجه النائم ببصره الكليل ويغيب فى تأملاته والجميع صامتون)

ولدى . ولدى .

يامن عبرت حدود التراب .

وحدود الميلاد والموت .

يامن علمتك فصرت معلمى

حققت الوعد وها انا اتبع اثرك

ولدى .. ولدى ..

هل هذا ممكن ؟

يامن تغمض عينيك كزهرة ذابلة
أنت أيها الكامل
اشبه بكمال الطفل ساعة ولادته .
النمل والعقارب والحيات لاتلدغك .
الوحوش المفترسة لاتعتدى عليك .
الطيور الجارحة لاتأكل من لحمك
عظامك لينة وأوتارك ضعيفة
ومع ذلك فقبضتك قوية .
وديع ومسالم كحمامة كسيرة الجناح
ومع ذلك تنتشر حولك رهبة تين
منطفىء الوجه كوردة محترقة
مع ذلك تشع منك مصابيح التجلى
ايها الأبن الذى اتحد بأمه
وها هى ذى تعانقك وتفرح
ايها الولد الذى حذرته من الضلال والضياع
وها هو يرشد معلمه الضائع الى الطريق
من كان يقدر ان نتلاقى ؟
فى اخر عمرى
اخر شبر فى مملكة الصين ؟
ياولدى استقيظ
عاين وجه معلمك
ودعه يشهد معجزة الطين
دبت فيه الروح وشع النور
واشرق من ظلمات اليأس يقين
قم ياولدى استيقظ ..
داو الجرح المطعون

(المعلم يتحسس بيديه وجه الناسك النائم . الجميع يلاحظون اهتزاز صوته وارتجاف جسده) .

العجـــوز : آه ياولدى ! ماذا فعلوا بك ؟

كم حذرتك ، كم ألححت عليك .
قل ياولدى . ماذا فعلوا بك ؟

التـــابـــع : سيتكلم ايها الشيخ .. لابد ان يتكلم .

العجـــــوز : (لحارس الحدود) : اخشى ان يكون الوقت قد تأخر ..

التـــابـــع : لقد حضرتما .. ولابد ان يتكلم .

الحـــــارس : هل تقصدنى انا والشيخ ؟

التـــابـــع : (مشيرا الى القيصر الاصفر الذى يقف طوال الوقت بعيدا منكفئا على نفسه) .. اقصد هذا الشيخ .. وهذا القيصر .

الحـــــارس : هذا .. القيصر الأصفر ؟

الجميـــــع : نعم .. هو القيصر الأصفر ..

الشيـــــخ : (متأملا) : ايهم ياأولادى ؟ فى كل مكان قيصر اصفر

الجميـــــع : من احرق وجهه .
من بتر اصابع قدميه ..

التـــابـــع : باسم الناسك ارجوكم ان تنتظروا ..

الجميـــــع : (للعجوز) باسم ضحيته نبتهل اليك :
حاكمه بنفسك واحكم انت عليه .

التـــابـــع : ارجوكم .. لحظات ويفيق .. ها هو يتحرك .. ينظر للافق .. يتمتم ..

الناســـــك : (يتقلب فى نومه . يعتدل ويتطلع فى الأفق وفيمن حوله . التابع وحارس الحدود يسرعان اليه ويساعدانه . يفتح فمه ويقول) :
ابنائى وبناتى .. شكرا لكم .. شكرا ياوانج .. كنت واثقا من انهم سيلبون دعوتى .

التـــابـــع : انهم ينتظرون طلعتك ياسيدى ..

الناســـــك : طلعتى ؟.. (يحاول ان يبتسم) اردت ان يسمعوا صوتى .

التـــابـــع : انهم منصتون ..

العجــــوز : وانا معهم ياولدى .. (الناسك يتفرس فى وجه معلمه) .

الناســـك : شكرا لهم .. شكرا لك .. أبنائى قلبى انى سأراك لأخر مرة ، وستسمعنى ولأخر مرة .

العجـــوز : لاتقل هذا ياولدى .. سيتسع الوقت لكى استمع اليك وتستمع الىّ ..

الناســـك : (مبتسما) : هل تتذكر ؟ مازالت كلمتك تحذرنى : الوداع ياولدى ! كم اخاف عليك .

العجـــوز : اردت ان تغير العالم . واردت ان تبدأ بتغيير نفسك .. وها أنت قد غيرت العالم والناس وتغيرت .

الناســـك : الى هذا الحد تحسن الظن بى ؟

العجـــوز : ألم اقل لك يوما : الحكيم يتخطى حدود التراب . وعندما تتخطى حدود التراب سأتبع اثرك . ها أنذا اتبعك واتعلم منك . ليتك تعفو عنى ..

الناســـك : انا يا معلمى !!

العجـــوز : لقد ظلمتك واتهمتك بأنك تحلم . لكن ماسمعته من حارس الحدود ومارأيته حولى قد كذب ظنى .

الناســـك : لاادرى .. ربما كنت لاازال احلم .

العجـــوز : بل حققت الحلم .

الجميـــع : معه الحق .. حققت الحلم .. حققت الحلم .

الناســـك : (رافعا يده بصعوبة) : ومن أجل هذا الحلم جمعتكم حولى .. لاعرف الى متى يستمر .. فأنا اشعر ان انفاسى تسحب روحى من جسدى

صـــــوت : مازلت بخير .. مازلت بخير.

صـــــوت : ماذا نفعل بعدك ؟

صـــــوت : منك تعلمنا الحلم وتحقيق الحلم ..

الناســـك : نعم ياأولادى .. واعلمكم ان تحموه ولو بالدم

صـــــوت : سنحميه وندفع عنه الشر ، ونواجه كل قياصرة الصين الصفر ..

القيصر الأصفر: لقد جئت نادما وعفوت عنى . قل لهم ايها الناسك .

الناســـك : اطمئن ايها القيصر .. فلولاك ماكان الحلم .. لولاك انت وكل القياصرة ما لاحقني الى اخر الصين واخر العمر .. اتعرفون يااولادى ؟ لقد ظل يطاردنى منذ فتحت عيونى . ظل يتغلغل في دمي ويسرى في بدني وروحي ويرافق طعامي وشرابي ونومي ويقظتي . دائما نفس الحلم .. دائما نفس الحلم .. يختطفنى كالنسر الهائل على جناحيه فانتفض رعبا . ويهبط بى على ارض اخرى فاشعر بالفرح والأمان .. كم من مرة ارتعشت من الرعب . وكم من مرة ارتجفت من الفرح . وفى كل مرة احس ان يدا هائلة سوداء تقتلعنى من جذورى ، وترتفع بي فوق الصين وسور الصين والعالم كله . هل جر بأحد هذا الرعب القاتل ؟ هل رأى احد مارأيت ؟ كل تراث الصين ، ماضيها الموغل فى الاف الدول والاف الاسر والاف القياصرة .. كلهم هناك من تحتي .. تلتف حولهم دائرة اطول من سور الصين واكبر .. دائرة انظر اليها من مكانى على جناح النسر العظيم فارى صور الماضى تتوالى : مواكب قياصرة تتدافع وتثير عواصف الغبار والدمار .. حشود جائعين وخائفين وموبوئين بالقحط والهوان والحرمان .. وكل شيء وكل حيوان وانسان يغشاه الغبار الاصفر تحت سماء مصفرة على ارض صفراء .. دائرة صفراء وابدية .. تلتف كتنين اصفر حول رقاب الجميع .. اذا دققت النظر فى الوجوه رأيت صفرة الذل واليأس والانكسار ، واذا اصخت السمع ترددت الصرخات والصيحات واللعنات .. تصوروا معى الات التعذيب والعقاب والارهاب ترسانة الحروب الدمار والخراب . ومئات المؤامرات التى يحيك خيوطها . الخونة والطغاة والأوغاد .. ويقع فى شباكها الابطال

والحكماء والقواد .. والدائرة تدور وتدور .. تتسع وتتسع وتغرق الدول والعصور والقصور . والمدن والقرى والوديان والسهول . وتضيق وتضيق على الالاف من المكسورين والمهزومين .. حتى تصل الىّ فتلفت على عنقى وتضغط وتضغط بقبضة جلاد محترف قاس . واصرخ واصرخ واقاوم واقاوم . حتى يأتى نسر ابيض يرفرف بجناحيه وينظر الى فأتسلق الجناح واطير . واحس انه يرتفع ويرتفع فوق الدائرة الابدية التى حاصرتنى وحاصرت اجدادى وينفذ فى افاق تسطع بالوان قوس قزح الزاهية ، ثم يهوى الى ارض اخرى بعيدة . مرج صغير مرصع بالينابيع والجنان والبحيرات والبساتين . يتجول فيه أو يعمل أو يتأمل فى ظل الشجرة اناس مثلى ومثلكم .. لهم ملامح اهل الصين وعيونهم ووجوههم .. أناس شهيقهم حب وزفيرهم حب .. يحبون الحلم ويصنعون الحلم . بأيديهم وعقولهم ينسجون خيوطه الحريرية ويمدون اسلاكه الفضية وينمقون تحفه الخزفية ويدبجون حروفه الصينية .. عبثا تبحث عينى عن متسلط يعذب متسلطين .. عبثا تقع على افاق أو محتال و خوان أو محترف للطغيان .. والكل وديع ومسالم .. والكل حكيم كامل .. حر وكريم وشجاع عادل .. اه ياابنائى .. هل جربتم سحر الحلم ورعبه ؟ ان يغوص الانسان فيه كما يغوص فى موجة طرية ناعمة ويفزع منه كأنه يتدحرج فى هاوية مظلمة ملعونة . ان يتشبث به بيديه واسنانه . وان يخشاه ويفر منه كأنه برق ينذر بالصاعقة ؟ ان يهيم فيه كعاشق مفتون يطوق بذراعه خصر معشوقته وينتفض خوفا منه كأنه قبضة جلاد قبل احكام حبل المشنقة ؟ لا لم يكن ذلك الفرح هو فرحى انا وحدى ، ولم يشل الرعب قلبى انا وحدى .؛ ففى جدول فرحتى

صبت الاف الجداول القديمة ، ومن بركان رعبى تدفقت
حمم الاف المرعوبين والخائفين والغاضبين ، وكما
اقتضى حلم الاجداد ضحاياه كذلك اقتضانى
التضحية . وكما خنق الاف القياصرة الصفر الاف
الاحلام فبعثوها حية ، كذلك خنق هذا القيصر الاصفر
حلمى وبعثه حيا ..

القيصر الأصفر : سمعتم ؟ لقد عفا عنى !

صـــــوت : لكنا لن نعفو عنك .

القيصر الأصفر : الناسك غفر الذنب .

الناســـك : أجل ياأولادى .. فلولاه ماسرت على الطريق .

القيصر الأصفر : صدقتم ؟

الناســـك : ولاجئت اليكم بالحلم

القيصر الأصفر : ولاجئت اساله ان يصبحنى الى مملكة تسى .

صـــوت امرأة : لتسلخ وجهه ؟

صوت امرأة أخرى : أم لتبتر اصابع يديه ؟

القيصر الأصفر : لو كان الأمر كذلك مابحثت عنه فى كل مكان .

العجـــوز : ولا وقفت على البرج العالى تنتظره ليل نهار

القيصر الأصفر : هل سمعت عن هذا ايها العجوز ؟

العجـــوز : بل رأيتك بنفسى اثناء الطريق

صـــــوت : هبك زرعت الحلم بمملكة تسى .. من يضمن الا يغتاله
قيصر اخر ؟

الناســـك : من يضمن شيئا فى هذا العالم ياولدى ؟ لهذا ادعوكم :
صونوا .. صونوا الحلم .. صونوا الحلم ..

(الناسك يغالب آلامه .. يفتح فمه ويغلقه قبل ان
يرتجف جسده ويسقط .. الجميع يلتفون حوله لحظة ثم
يبتعدون عن المحفة وينفرد كل منهم بأحزانه) .

التـــابــع : مات الناسك .

حارس الحدود: مات ..

الجميـــع : مات ؟

العجــــوز : رجع الى حضن الأم .
صـــــوت : بل فتك به السم .
امــــرأة : (تتجه الى القيصر الاصفر)
بم تشعر الآن أيها الرجل القاسي ؟ هل تشعر بالراحة ؟
هل تشعر انك حر ؟ كان شوكة ضميرك ، والشوكة قد نزعت .
كان الرعد الغاضب فى أذنيك . والآن يمكنك ان تسمع موسيقى الابواق وطبول الحرب .
القيصر الأصفر : لا .. لن افعل . اقسم اقسم ..
صـوت امرأة : مات الراعي .
صـوت امرأة : مات الكامل ..
صـوت رجـل : مات الأخ والأب ..
العجــوز : بل رجع الى حضن الأم .
رجع الى حضن الأم .
صـوت امرأة : معذرة يامين - كين - وو
معذرة يامين - كين - وو
ان كنا نحن قتلناك فنسألك الصفح
ونسألك العفو عن الذنب .
رجــــل : عفوا يامين - كين - وو
اعطيت ولم نعطك شيئا
قصرنا فى حق الحب
واخذنا انفاسك منك
ودقات القلب
والآن وقد جاء الموت
وغاب الصوت
فتأكد ياحادى الركب
يوم حضرت لقريتنا
امتنع علينا الخوف

وزال الرعب
وعرفنا كيف نعيش
وكيف نحب
الآن وقد مات الحالم
لم يقدر كل قياصرة الصين
على محو الحلم

العجـــوز : رجع الى حضن الأم
رجع الى حضن الأم
ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلمْ

الجميـــع : ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم

صـــــوت : ياأبناء الحاضر
صونوا الحلم
ياأشباح المستقبل
صونوا الحلم

صـــــوت : يامن تتخلق فى الرحم ولم تظهر بعد
يامن لم تكره بعد
ولم تقتل بعد
يامن لم تقس على احد
لم تغتر ولم تتسلط بعد
حاول ان تذكر مين ـ كين ـ وو
هذا الحالم
من ارض الصين
يامن لم تكره بعد
ولم تقتل بعد
حاول ان تذكر مين ـ كين ـ وو
وصن الحلم من القيصر
واحم الحلم من التنين

الجميــــع : ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم
ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم
(التابع يسند رأسه الى المحفة ويبكى . يبدأ بعض الحاضرين فى التفرق واحدا بعد الآخر وهم يرددون) :
عفوا يامين - كين - وو
عذرا يامين - كين - وو
ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم
(يتعاون بعض الرجال على حمل المحفة والسير بها بعيدا . تتقدم امرأة وتضع يدها على رأس حارس الحدود الذى يضع رأسه بين كفيه قائلة) :
هذه الزهرة كنت اريد ان اضعها على قلبه .. ارجوك ياحارس الحدود .. ضعها على شاهد قبره .
حارس الحدود : شكرا لك ايتها البغى ..
معذرة .. شكرا يازوجة البستانى .
(يسمع صوت يردد : لاشىء ارق من الماء ..
لاشىء ارق من الماء)
الصبــــى : يامعلمى .. ياحارس الحدود
حارس الحدود : تعال يابنى .. لماذا تركت الكوخ ؟
العجــــوز : ولدى .. كيف عرفت الطريق ؟
الصبــــى : (ضاحكا ثم كاتما ضحكته بعد ان رأى الرجال يحملون المحفة ويسيرون فى جنازة) كما علمتنى ياسيدى .. وكما علمت الراقد فى المحفة ..
حارس الحدود : معذرة ايها العجوز .. سأرجع بعد قليل الى الكوخ .
ارجوك ان تسبقنى مع الصبى الى هناك .. المحبرة والريشة والدواة هناك .. وفى الجراب من الزاد ما يكفيك .

العجـــوز : اريد يابنى ان اتابع الطريق ..
حارس الحدود : (متعجلا) : لقد ترك لنا الحلم .. الا تترك لنا الحكمة لنهتدى للطريق ؟
العجـــوز : مادمت تريد ياولدى .
(ينصرف الحارس بسرعة) .
القيصر الأصفر : (يتقدم من العجوز) : وأنا ايها العجوز .
العجـــوز : أنت ؟ ماذا تطلب يابنى ؟
القيصر الأصفر : هل تتخلى عنى ايضا .
العجـــوز : يابنى .. من يتمسك بالطريق لايتخلى عنه الطريق .. اذهب وابحث عنه ..
القيصر الأصفر : ارجوك .. ساعدنى .. ساعدنى ..
(ينصرف العجوز مع الصبى .. اصوات تردد سطور الحكمة التى سمعناها فى مطلع المشهد السابق بغير ترتيب) .
صـــوت : لاشىء أرق من الماء .
فهو يفتت جلمود الصخر .
صـــوت : الكلمات الصادقة ليست براقة .
الكلمات البراقة ليست صادقة .
صـــوت : من يحمل طين العالم
فهو سيد المملكة
من يحمل ذنب العالم
فهو ملك العالم
وبالوداعة والنقاء والسكينة
يجعل مملكة الأرض عادلة .. الخ ..
القيصر الأصفر : (متخبطا وحده) : ارجوك .. ساعدنى .. (متجها الى الجمهور) .
ارجوكم ..
ساعدونى ..
ساعدونى ..
(تسدل عليه الستار وهو يمد ذراعيه للناس متوسلا باكيا) .

الطفل والفراشة
مسرحية من فصل واحد

الشخصيات

- الحكيم تشوانج تسو
- الحكيم هوى تسو
- امرأة شابة
- طفلها

الطفل والفراشة

(حديقة صينية عامة . الحكيمان تشوانج ـ تسو و هوى ـ تسو يجلسان على اريكة فى ظل شجرة ضخمة ، يتطلعان الى احواض الزهور والفراشات التى تحوم حولها والاطفال الذين يجرون وراءها) .

تشوانج تسو : آه ! مشكلة صعبة .

هوى تسو : آه ! مشكلتى أصعب .

تشوانج تسو : كيف عرفت ! إننى لم أحك لك شيئا .

هوى تسو : وهل من الضرورى ان تحكى . يكفى اننى سمعتك تتنهد بعمق ..

تشوانج تسو : ولكنك تنهدت أعمق منى ..

هوى تسو : هل أفهم من هذا أنك أحسست بمشكلتى

تشوانج تسو : وكيف أحس بها قبل أن أعرفها ؟

هـوى تسـو : كما أحسست عندما سمعتك تقول آه .
تشوانج تسو : أنا أيضا سمعتك تقول آه . كانت صادقة ومن القلب .
هـوى تسـو : وماذا تصورت عندما سمعتها ؟
تشوانج تسو : بل قل عندما شعرت بلفح نارها .. شعرت انك بدأت تحن الى بلدتك « تشو » والى نهر « هاو » الذى يشقها .. مع ان زيارتك لم تطل عندنا .
هـوى تسـو : صدقت .. ولكننى لم احن الى نهر « هاو » نفسه ، بل الى الاسماك التى تسبح فيه .
تشوانج تسو : الاسماك التى تسبح فيه ؟ حقا انها لمشكلة .
هـوى تسـو : لاتسخر ياصديقى تشوانج تسو .. الا يمكن ان يحدث لك حين تشعر انك اصبحت سمكة .
تشوانج تسو : (ضاحكا) : هوى تسو الحكيم المشهور فى الصين كلها يصبح سمكة ؟
هـوى تسـو : أو السمكة تصبح هى صديقك المشهور فى الصين كلها هوى تسو ..
تشوانج تسو : هى على كل حال مشكلة هينة اذا قيست بمشكلتى .
هـوى تسـو : مستحيل .. قلت لك مستحيل .
تشوانج تسو : وكيف تجزم بشىء لم تره ولم تعرفه .
هـوى تسـو : ولكننى احسست به .. قلت لك احسست به .
تشوانج تسو : وبماذا احسست ؟
هـوى تسـو : هل تظن اننى لااعرفك بعد هذا العمر الطويل .. الم نتعلم معا عند معلم واحد ؟
تشوانج تسو : نعم نعم .. ولكن ..
هـوى تسـو : احسست انك حلقت عاليا فى السماء وطفت العالم فوق سحابة . ثم هبطت فجأة
تشوانج تسو : فجأة .. أكمل .. أكمل .
هـوى تسـو : نعم هبطت فى هذه الحديقة .. واخذت تنظر مذهولا الى الأشجار والزهور والاطفال التى تجرى وراء

الفراشات ، والفراشات التى .

تشوانج تسو : تأكد مما تقول .. لقد كانت فراشة واحدة .

هـوى تسـو : فراشة واحدة أو أكثر .. لايهم .

تشوانج تسو : انه أمر فى غاية الأهمية .. لقد كانت فراشة واحدة .

هـوى تسـو : المهم انك رأيتنى جالسا على هذه الأريكة .

تشوانج تسو : قلت لك كانت فراشة واحدة .. هذا أمر فى غاية الأهمية ..

هـوى تسـو : وما اهميته ياتشوانج تسو ؟

تشوانج تسو : ان هذه الفراشة كانت هى تشوانج تسو .

هـوى تسـو : أو كان تشوانج تسو هو الفراشة !

تشوانج تسو : بالضبط .. وهذه هى المشكلة ..

هـوى تسـو : المهم انك صحوت من الحلم ورأيتنى على هذه الأريكة .

تشوانج تسو : الحلم .. أجل .. أجل . وهذه هى المشكلة .

هـوى تسـو : وماذا فى هذا ؟ أنا أيضا رأيت فى الحلم .

تشوانج تسو : لايمكن ان تكون قد رأيت نفس الحلم . هل تحولت مثلى الى فراشة

هـوى تسـو : بل الى سمكة .

تشوانج تسو : سمكة ؟ لكن مشكلتى أصعب .

هـوى تسـو : بل مشكلتى .

تشوانج تسو : دعنى أروى عليك الحلم .

هـوى تسـو : بل أنا أولا .. سترى بنفسك .

تشوانج تسو : لايمكن ان تكون قد رأيت مارأيت .. اسمعنى اولا .

هـوى تسـو : مشكلة اخرى .. تكلم إذا

تشوانج تسو : تصور ياهوى تسو .. بالأمس حلمت اننى تحولت الى فراشة .. انا تشوانج تسو .. بكل شحمى ولحمى .. تحولت الى فراشة ترف هنا وهناك . تصعد وتهبط .. تسقط على حوض الزهور ثم ترفرف وتطير إلى أشجار

الورد والتين والبلوط .. فراشة حقيقية .. بكل مافى
الفراشات من طيش ونقاء وحنين .. وكأن وعيى
كانسان قد تعطل .. كأنى دخلت فى جلدها وشعرت
بأحاسيسها ونبض قلبى بنبضها . كأن ذراعى
اصبحا جناحين ملونين بألوان قوس قزح التي تخلب
ألباب الاطفال .. وكأن فمي صار فم فراشة لاتشتاق
الى اكثر من قطرة ماء أو رشفة ندى أو نفحة شذى ..
فراشة تدور سعيدة في كل مكان .. وكل مهمتها فى
الحياة ان تنقل تحية السماء والالهة الى كل زهرة وكل
نسمة وكل عبير . وفجأة .

هـوى تسـو : ماذا ؟ لاتقل انك وجدت نفسك فى كف طفل صغير ؟

تشوانج تسو : ليت هذا ماحدث .

هـوى تسـو : وقعت فى شبكة صياد أو صيادة رقيقة ؟

تشوانج تسو : قلت لك ليت هذا هو الذى حدث .

هـوى تسـو : وماذا حدث .

تشوانج تسو : انها المشكلة .. لقد صحوت من النوم فجأة .

هـوى تسـو : مشكلة ان تصحو من النوم ؟

تشوانج تسو : بل ان أجد نفسي مرة أخرى كما أنا .. تشوانج تسو
كما يعرف نفسه ويعرفه الناس .. راقدا على نفس
الفراش الذى رقدت عليه قبل النوم .. لابسا نفس
المنامة التى لبستها قبل ان اتحول الى فراشة ..

هـوى تسـو : ولم تستطع التمييز بين الحلم واليقظة .. ولابين الوهم
والحقيقة .

تشوانج تسو : ليت الأمر اقتصر على هذا . فنحن نعيش ليل نهار فى
هذه الحيرة الدائمة .. لانعرف أين هو الحاجز بين
الوهم والحقيقة .. لاندرى متى ينتهى الحلم وتبدأ
اليقظة .

هـوى تسـو : آه ! كأنه نفس الحلم .

تشوانج تسو : مستحيل .. قلت لك مستحيل .

هـوى تسـو : وما هو المستحيل ياتشوانج تسو .

تشوانج تسو : مستحيل ياهوى تسو ان تكون قد واجهت مشكلتى انا تشوانج تسو أم انا الفراشة التى مازالت تحوق فوق الزهور والاشجار .. هل كنت انا الانسان الذى حلم بأنه فراشة . ام كنت الفراشة التى حلمت بانها الانسان ؟ هل هناك حاجز بين الانسان والفراشة ؟ وهـل تخطيت هـذا الحـاجـز ؟ فتحت عينى واغمضتهما . ثم فتحتهما ورحت اتحسس رأسى ويدى وذراعى وساقى وانا اسأل : انسان أم فراشة ؟ فراشة ام انسان ؟

هـوى تسـو : هذا أهون على كل حال من ان تسأل : انسان انا ام سمكة ؟ سمكة أنا أم انسان .

تشوانج تسو : ولكنك لست سمكة .

هـوى تسـو : ومن اين عرفت

تشوانج تسو : انت الان بجانبى ولست فى بحيرة او نهر ..

هـوى تسـو : ذلك مارأيت فى الحلم .

تشوانج تسو : انت ايضا .

هـوى تسـو : ألم اقل لك ؟

تشوانج تسو : ولكن لايمكن ان يكون نفس الحلم .

هـوى تسـو : اسمع واحكم بنفسك .. هل تذكر نهر « هاو » الذى مشينا على شاطئه عندما زرتنا فى « تشين »

تشوانج تسو : نعم . نعم . واذكر الجسر الذى وقفنا عليه ورحنا نتطلع الى دوائر الماء .

هـوى تسـو : وثعابين السمك الصغيرة التى كانت تلمع تحته كأنها نجوم ترتدى ثياب السحب . اتذكر ماقلته لك عندئذ ؟

تشوانج تسو : لا . لاأذكر لقد كنت صامتا فى ذلك اليوم .

هـوى تسـو : ربما . ربما اكون قد قلته لك فى الحلم .

تشوانج تسو : لى انا..

هـوى تسـو : نعم . نعم .. لقد رأيتك معى فوق ذلك الجسر . كنا

نطل على الماء وقلت لك : انظر ياصديقى تشوانج تسو . انظر كيف تتسابق الاسماك . هذا ماسميه فرحة الاسماك .

تشوانج تسو : ولكنك لست سمكة . كيف يمكنك ان تعرف ان الاسماك فرحة .

هـوى تسـو : وهذا هو الذى قلته ايضا فى الحلم .

تشوانج تسو : شىء غريب . أنا قلت هذا ؟

هـوى تسـو : واجبتك قائلا : انا لست انا . فكيف يمكنك أن تعرف اننى لاعرف فرحة الاسماك ؟

تشوانج تسو : معقول . فأنا لست أنت . ولهذا لاأعرفك .

هـوى تسـو : وهذا ماقلته ايضا . ثم اضفت الى ذلك انك تعرف شيئا واحدا ، وهو انني لست سمكة ، ولهذا لايمكنني أن أعرف الأسماك .

تشوانج تسو : شىء غريب حقا .. ولكن لنرجع الى سؤالك .

هـوى تسـو : ورجعت بالفعل الى سؤالى .

تشوانج تسو : وماذا قلت ؟

هـوى تسـو : لقد سألتنى : كيف يمكنك ان تعرف فرحة الاسماك ؟ الواقع انك كنت تعرف اننى اعرف ، ومع ذلك اصررت على سؤالك .

تشوانج تسو : وماذا كان جوابك ؟

هـوى تسـو : هو الذى اجبتك به فى الحلم .

تشوانج تسو : ومازلت تذكره ؟

هـوى تسـو : نعم . نعم . كأنى نطقت به الآن . اعرفها من الفرحة التى اشعر بها وانا انظر للماء .

تشوانج تسو : غريب .. شىء لايصدق .

هـوى تسـو : اننى تحولت الى سمكة ؟

تشوانج تسو : ولكنك لست سمكة ..

هـوى تسـو : وهل انت فراشة؟

تشوانج تسو : اننى اراك واستطيع ان المسك .. انت هوى تسو .
هـــوى تسـو : وأنا آراك واستطيع أن ألمسك .. أنت تشوانج تسو ..
تشوانج تسو : انسان أنت ولست سمكة .
هـــوى تسـو : وأنت إنسان ولست فراشة .
تشوانج تسو : ولكنى تحولت الى فراشة .
هـــوى تسـو : وأنا تحولت الى سمكة .
تشوانج تسو : كان هذا فى الحلم . أستطيع ألآن أن أهز كتفيك أو أضربك على رأسك فتستيقظ منه .
هـــوى تسـو : أنا أيضا أستطيع أن أهز كتفيك أو أصفعك على وجهك وأوقظك من الحلم .
تشوانج تسو : وهل يثبت لك هذا انك لاتحلم .
هـــوى تسـو : مادمت لااتلقى الصفعة
تشوانج تسو : اذا فخذ هذه (يصفعه) هل انت الآن فى اليقظة ام فى الحلم ؟
هـــوى تسـو : وانت .. خذ هذه (يركله ركلة شديدة فى بطنه) هل مازلت تحلم ام استيقظت ؟
(يدخل طفل يجرى ليمسك بفراشة وهو يصيح) :
الطفـــــل : الفراشة .. الفراشة .. امسكها ايها السيد .. ساعدنى .. انت ياسيد .
هـــوى تسـو : الست فراشة ؟ ساعده ان يمسك بك .
تشوانج تسو : تعال ياولدى .. تعال .
هـــوى تسـو : تقدم يابنى .. هذه هى الفراشة .
تشوانج تسو : من حسن الحظ اننى لست سمكة .
هـــوى تسـو : ولكنك لازلت تحلم .
تشوانج تسو : وانت ؟ هل استيقظت من حلمك .
هـــوى تسـو : على الأقل عندما ركلتك فى بطنك ..
تشوانج تسو : كانت ضربة شديدة .
هـــوى تسـو : وصفعتك اشد ..

تشوانج تسو : معذرة ياصديقى هوى تسو .. لابد اننى كنت احلم .
هــوى تسـو : معذرة ياصديقى تشوانج تسو .. اختلط علىَّ الحلم والیقظة .. (يتعانقان الطفل ينظر اليهما متعجبا .. تدخل امه على عجل) .
الأم : ولدى .. ولدى .. ماذا تفعل ؟
هــوى تسـو : ها هو ابنك .. لاتخافى .
تشوانج تسو : كان يجرى وراء الفراشة
هــوى تسـو : لقد حسب هذا السيد فراشة وأراد أن يمسك به .
تشوانج تسو : ولو كانت معه سنارة لأمسك بك ..
الأم : معذرة أيها السيدان .. أخشى أن يكون قد أزعجكما .. كنتما فى شجار على ماأظن .
تشوانج تسو : أبدا.. أبدا .. مجرد اختلاف فى الرأى .
هــوى تسـو : أو فى الحلم .
الأم : اختلاف فى الرأى أو فى الحلم ؟
تشوانج تسو : رأى هذا السيد فى الحلم انه سمكة .
هــوى تسـو : ورای هذا السيد انه فراشة .
الأم : (ضاحكة) فراشة وسمكة ؟ كنتما تحلمان !
هــوى تسـو : ولانعرف حتى الآن ان كنا فى حلم ام فى يقظة .
الأم : في حلم أم يقظة .
تشوانج تسو : ألا تحلمين أيتها المرأة ؟ الا يحلم طفلك ؟
الأم : هــذا الغبـى .. كـم رأى فـى الحلـم انـه تحـول الـى فراشـة .
تشوانج تسو : سمعت ؟
هــوى تسـو : وانت ياسيدتى .. هل تحلمين ايضا ؟
الأم : أنا لااحلم ايها السيدان .. نحن الفقراء لانحلم .. اننى اوقظ ولدى من حلمه .
تشوانج تسو : ولماذا توقظينه ؟ لماذا لاتتركينه يحلم بأنه فراشة .
هــوى تسـو : أو بأنه سمكة ؟

الأم : آه .. الحياة قاسية بما فيه الكفاية .
تشوانج تسو : تقصدين انك فى يقظة دائمة .
هــوى تســو : ام انك لاتستطعين التفرقة بين اليقظة والحلم .
الأم : اقصد . لاادرى ماذا اقصد .. امثالنا ليس لديهم الوقت ليفكروا فى هذا .
تشوانج تسو : اسألك بكل احترام : ماذا تعنين بقولك هذا ؟
هــوى تســو : وانا اسألك بكل خضوع نفس السؤال ..
الأم : تعال ياولدى .. اننى لاافهم السؤال ولاأعرف الجواب .. لاأعرف إلا أن إمثالنا لايفكرون فى هذه الأمور .. انهم يشقون فحسب ..
تشوانج تسو : تشقون فحسب .. هذا مفهوم .. ولكن فى الحلم أم فى اليقظة ؟
هــوى تســو : نعم نعم .. فى الحلم أم فى اليقظة .
الأم : تعال ياولدىّ .
الطفـــل : الفراشة ياأمى .. الفراشة ..
الأم : قلت تعال .. تريد ان تحلم مثلهم .
(تشد طفلها بعنف وتمضى) .
تشوانج تسو : (ينظر صامتا الى هوى تسو)
هــوى تســو : (ينظر فى صمت الى تشوانج تسو)
هــوى تســو : هل تعرف ياصديقى تشوانج تسو ؟
تشوانج تسو : ماذا ياصديقى هوى تسو ؟
هــوى تســو : لقد شعرت بالخجل أمام هذه المرأة .
تشوانج تسو : وانا شعرت بالخجل امام الطفل ..
هــوى تســو : لانك لم تكن فراشة كما اراد .
تشوانج تسو : ولاننى لاأعرف ان كنت فراشة تحولت الى انسان ، ام اننى انسان تحول الى فراشة .. وانت ايضا .
هــوى تســو : نفس الشىء ياصديقى .. مازلت لاادرى ان كنت الانسان الذى شعر بفرحة السمكة ام السمكة التى احست بفرحة الانسان .. هل تدرى السبب فى حيرتنا .

تشوانج تسو : وماهو السبب ؟
هـوى تسـو : كلانا لم يتحول بعد .
تشوانج تسو : نعم . نعم . كلانا لم يتحول بعد .
هـوى تسـو : مازلنا اطفالا فى بداية الطريق .
تشوانج تسو : وليتنا استطعنا ان نتحول الى اطفال .. هل تذكر معلمنا العجوز .
هـوى تسـو : كونج - فو - تسو ؟ ومن يمكنه ان ينساه .
تشوانج تسو : وتذكر الحوار الذى دار بينى وبينه ورحت ابكى بعد انتهائه وانت تربت على ظهرى وتمسح دموعى .
هـوى تسـو : كم فعلت هذا .. لقد كنت كما قال طفلا صغيرا . انا ايضا كنت طفلا على بداية الطريق .
تشوانج تسو : مازلت اذكر ذلك الحوار كأنه دار بيننا صباح اليوم .
هـوى تسـو : اما انا فقد نسيت .. مرت سنوات طويلة شاب فيها شعر الاطفال .
تشوانج تسو : ومازلنا اطفالا لم نتعلم بعد .. دخلت عليه فى صباح ذلك اليوم فوجدته كما تعودنا ان نراه .. وديعا ساكنا كأنه شجرة عظيمة . شجرة ممتدة الجذور وارفة الظلال .. لم يتحرك من مكانه ولم ينظر الىّ .. سألت نفسى يومها : هل صار المعلم سحابة محلقة فوق العالم . ام اصبح اما تحتضن الكائنات والاشياء كأنها تحتضن أولادها .
هـوى تسـو : وتربعت على الأرض امامه ورحت تنظر اليه .. كانت هذه هى عادتك .. بدلا من ان تسأله عن حاجته .
تشوانج تسو : بل تشجعت فى ذلك اليوم وتقدمت منه وسألت : سيدى .. انك تجلس فى هدوء فاجلس فى هدوء مثلك . تمشى خطوة فامشى خطوة . تسرع فى السير فاسرع معك . تركض فاركض . ولكن عندما تخرج من حدود التراب ارتبك واتوقف واكتفى بأن

أحدق فيك . ضحك وقال :

تشوانج تسو : (مقلدا صوت المعلم) أجل أجل ، كما تفعل الآن .

تشوانج تسو : كيف يحدث لك هذا ؟

صوت المعلم : ماذا تقصد بسؤالك ؟

تشوانج تسو : اقصد هذا .. عندما تتكلم اتكلم . وعندما تقيم الحجة أقيم الحجة . وعندما تعلم الطريق ، أعلم الطريق مثلك . ولكن عندما تخرج من حدود التراب أتوقف مذهولا وأحدق فيك .

صوت المعلم : سألتك ماذا تقصد ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

تشوانج تسو : أريد يامعلمى ان تفسر لى هذا السر ؛ انك تلوذ بالصمت ولاتتكلم ، ومع ذلك يصدقك الجميع ، لاتتحمس ولاترفع صوتك ، ومع ذلك يوافقك كل انسان ، لاتحاول أن تجذب أحدا ، ومع ذلك ينجذب الجميع اليك . هذا هو اللغز الذى لافهمه .. اللغز الذى يؤرقنى ويلسعنى كالشوكة .

صوت المعلم : اللغز ؟ الشوكة ؟ ولماذا لاتحاول ان تصل الى اصله وجذوره ؟ توقعت ان تجهد عقلك وروحك لتعرفه ، فليس فى الدنيا شيء ادعى الى الحزن من موت العقل والروح . ان موت الجسد لايقاس بموت الروح .

تشوانج تسو : تهورت ورفعت صوتى قائلا : اهو لغز اخر يامعلمى ؟ .. تطلع فى صمت امامه ولم يحرك شفتيه . حدق فى الفراغ حتى شعرت أنه اصبح جزءا منه . بعد لحظات نظر الىّ وقال :

صوت المعلم : ان الشمس تشرق فى الشرق وتغرب فى الغرب . ما من شيء يفلت من تأثيرها . ما من حى يمكنه ان يخرج على نظامها . وكل من له عيون واقدام يتعلق بها ليحيا حياته ويتم عمله . فعندما تظهر تظهر

الحياة ، وعندما تختفى تختفى معها الحياة .

تشوانج تسو : سألت فى حيرة : وما العلاقة بين الشمس والروح ما العلاقة بينهما يامعلمى ؟

صوت المعلم : العلاقة واضحة يابنى . فى كل انسان شمس تشرق وتغرب . شمس الروح التى تتعلق بها حياته وموته . ان ذهبت مات . وان رجعت عادت اليه الحياة . هذا هو الذى اسميه التحول الذى يجدد الحياة ويحافظ عليها . فان جررت جسدى نحو النهاية دون ان احقق ذلك التحول الذى يجدد الحياة ، ان تركت نفسى استهلك ليل نهار كأنى شىء من الاشياء . ان لم أشعر بالموت الأبدى الذى يتم فى كل لحظة أن أحسست أن شمس الروحية قد انطفأت وانه لايوجد شىء يمكنه أن ينقذنى من القبر ـ عندئذ تضمحل شمس وتصبح شمعة ضعيفة تذبل وتلفظ انفاسها . حتى يفاجئنا الموت فنشعر انت وانا كأن اكتافنا قد تلامست مرة واحدة قبل ان نفترق الى الأبد ! ليس هذا شيئا محزنا ؟

تشوانج تسو : قلت : هو شىء محزن يامعلمى . غير اننى لازلت لاأفهمك .

صوت المعلم : قل انك لاتفهم نفسك . انك الآن تنظر الىّ .

تشوانج تسو : بل أحدق فيك يامعلمى .. ألمْ أقل اننى أفعل هذا كلما شعرتانك تخطيت حدود التراب ؟

صوت المعلم : نعم قلت هذا . ولكنك تحدق ببصرك الآن لكى ترى فى شيئا قد اختفى عندما نظرت الىَّ . ومع ذلك ظللت تحدق فىَّ بحثا عن شىء قد تلاشى. وكأنك رجل ذهب الى السوق ليبحث عن خيول بيعت قبل وصوله .. انظر !

تشوانج تسو : قلت : مازلت انظر ياسيدى ..

صوت المعلم : ان مايعجبنى فيك قابل للتحول . ومايعجبك فىّ
قابل للتحول .
لماذا تحزن اذا ؟ اذا كانت نفسى تموت فى كل
لحظة ، فعلىَّ أن أحولها فى كل لحظة لكى تكون
أبدية . واذا كنت تريد الابدية ، فعليك ان
تتحول ..
هوى تسو : نعم . نعم . صدق معلمنا العجوز . مازال علينا ان
نتحول ..
تشوانج تسو : ومازال الطريق بعيدا عنا ..(يبكى)
هوى تسو : ونحن بعيدون عنه .. ربما كان هذا هو سر حزنك
ياتشوانج تسو ..
تشوانج تسو : وحزنك ايضا ياهوى تسو .. هل تنكر ؟
هوى تسو : وحزنى ايضا (يبكى) ولكننى تحولت الى سمكة ..
ألم أشعر بفرحة الاسماك ..
تشوانج تسو : كان مجرد حلم .. أنا أيضا ..
هوى تسو : لاتقل تحولت الى فراشة ..
تشوانج تسو : مثلك تماما .. فى الحلم !
هوى تسو : ولهذا لم يستطع الطفل المسكين أن يمسك بك ..
تشوانج تسو : وهذا هو سر حزنى ...
هوى تسو : وحزنى أيضا .. هل يغرك اننى اضحك .. لقد تحولنا
فى الحلم .
ثم عجزنا ان نتحول فى اليقظة ..
تشوانج تسو : عدت الى الحلم واليقظة ؟ . أين الحلم من اليقظة ؟
. وأين اليقظة من الحلم ؟ آه أكاد أجن ..
هوى تسو : بدلا من أن تجن .. حاول أن تتعلم كيف تتحول ..
تشوانج تسو : وأنت ؟ هل حاولت هذا ؟ هل تحولت منذ أن مات
معلمنا ؟ هل وصلت الى الأبدى ؟ . هل أصبحت
الأبدى ؟
هوى تسو : أصبحت سمكة .. أى إننى الآن على الطريق ..

تشوانج تسو . سمكة أم انسان .. انسان أم سمكة
هـوى تسو : لانك لم تتحول .. لأنك مازلت مثاليا
كما كنت ..
هـوى تسـو : وأنا . واقعى

تشوانج تسو : ولكننى مثالى واقعى ... مثالى .
تشوانج تسو : بل أنا الواقعى
والموضوعى ..

هـوى تسـو : أنا موضوعى مثالى ..
تشوانج تسـو : وأنا مثالى موضوعى ..
هـوى تسـو : وهل هنالك فرق ؟ ..
تشوانج تسـو : وأى فرق ..
هـوى تسـو : قله إذن أيها الفراشة !
تشوانج تسو : قله أنت أيها السمكة !
هـوى تسو : أنا يقظ يحلم ، وأنت تحلم فى اليقظة ..
تشوانج تسو : بل أنت الذى تحلم .. هل يمكن ان يشعر انسان بفرحة الاسماك ؟
هـوى تسـو : وهل يمكن ان يتحول سمين مثلك الى فراشة ؟
تشوانج تسو : تعيرنى بشحمى ولحمى .. أشرف لى على كل حال أن أكون فراشة ..
هـوى تسـو : وأشرف لى ان أترك بلدك وأسبح فى مياه نهر هاو ..
تشوانج تسو : يقظ يحلم مفتوح العينين ...
هـوى تسو : أفضل من حالم لايستيقظ ..
تشوانج تسو : مثالى موضوعى ...
هـوى تسـو : موضوعى مثالى ...
(يوشكان أن يتضاربا عندما يدخل الطفل الصغير فجأة ووراءه أمه التى تحاول أن تلحق به ...)
الطفل : لن تمسكينى قبل ان امسك الفراشة ..
الأم : تعال .. قلت لك تعال ..

الطفل : ساعدانى أيها السيدان ..
الأم : دع السيدين فى حالهما ..
تشوانج تسو : تعال ياصغيرى .. تعال ..
الطفل : هل وجدت الفراشة ؟
تشوانج تسو : أنا الفراشة .. اذ أردت صرت فراشة ..
الطفل : أنت ؟! انظرى ياأمى ! هذا السيد فراشة ! ..
تشوانج تسو : واذا أردت صرت طفلا ..
الطفل : طفل أم فراشة ؟ ... تعالى ياأمى ...
الأم : معذرة أيها السيد .. معذرة ..
تشوانج تسو : انه لايزعجنا على الاطلاق .
الأم : لقد قطع حديثكما . معذرة ياسادة ..
هوى تسو :
وهوى تسو : بل أيقظنا من حلم طويل .. نحن الآن ..
الأم : معذرة .. معذرة .. ليس لدينا وقت .. لابد ان أشقى لأطعم هذا الطفل اليتيم .. تعال أيها الملعون .. العمل ينتظرنا ويحلم بأنه فراشة ..
الطفل : هذا السيد هو الفراشة ..
تشوانج تسو : أعاهدك على هذا يابنى .. سأكون فراشة اذا شئت ..
هوى تسو : وأنا أيضا .. الا تحب السمك يابنى ...
الطفل : أمى .. أريد سمكة .. هذا السيد سمكة ...
الأم : عفوا ايها السيدان .. هذا الصغير لايعرف ما يقول .. انه لايريد فراشة ولاسمكا .. هل تعرفان مايريد ..
تشوانج تسو :
هوى تسو : ماذا يريد ؟
الأم : يريد رغيفا يملأ بطنه .. سقفا يدفىء جسده ..
تشوانج تسو : حقا .. حقا .. رغيف يملأ بطنه .. سقف يدفىء
هوى تسو : جسده ..

الام : تعال يابنى .. تعال ..

(تسحب ابنها من يده بشدة وتنصرف)

تشوانج تسو : أيتها الأم المبجلة ..

هـوى تسـو : أيتها الأم الحكيمة .. نعدك أن نتعلم ...

تشوانج تسو : نعدك أن نتحول ...

هـوى تسـو : أن نتحد بكل شيء ...

تشوانج تسو : ونعانق كل شيء ...

هـوى تسـو : أن نصبح مثلك أما تحتضن جميع الاطفال ..

تشوانج تسو : تحتضن جميع الاشياء ..

هـوى تسـو : أن نصبح أرضا وسماء ...

تشوانج تسو : سقفا ورغيفا ..

هـوى تسـو : لابنك ولكل الأبناء ..

تشوانج تسو : سأكون أنا فراشة ..

هـوى تسـو : وأنا سمكة ..

تشوانج تسو : الفراشة أولا ..

هـوى تبسـو : بل سمكة .. سملكة ..

تشوانج تسو : قلت فراشة ....

هـوى تسـو : وأنا قلت سمكة ...

تشوانج تسو : (ضاحكا) : عندما نتحول سنكون كل شيء ..

هـوى تسـو : (ضاحكا) : نعم . نعم .. كل شيء ..

تشوانج تسو : (يمسك يده) : كل الفراشات والاسماك .. كل الاطفال ..

هـوى تسـو : كل الاطفال الفقراء ..

(يضحكان .. يضع كل منهما يده فى يد الآخر وينصرفان ...)

السيد والعبد

(قاعة فسيحة ، تتوسطها منضدة كبيرة يجلس اليها رجل على مشارف الكهولة . أمامه ومن حوله ألواح مسمارية كثيرة ، ولوحات معلقة على الجدران تطل منها نقوش بابلية بارزة لملوك وآلهة ومناظر من الحياة اليومية والاجتماعية . نافذة كبيرة تبدو من وراءها خرائب مدينة قديمة . يتململ الرجل فى جلسته ، يحاول أن يبدأ عمله ثم ينفض يديه من المحاولة وينهض على قدميه صائحا :) .

السـيد : أيها العبد .. أيها العبد ... (يتأخر عليه العبد فيقول لنفسه :) ماهذا ؟ ماذا جرى لى ؟ انا الذى فكرت وكتبت اكثر من عشرين سنة لم أعد قادرا على تفكير ولا كتابة . حتى المخطوطات القديمة التى كنت أجد متعتى وسلواى فى نسخها أصبحت لا أطيق النظر اليها . وتمر الايام والليالى وانا أحاول بيتا واحدا من الشعر فلا يستجيب ، مع انى كتبت للملك عشرات الحكايات والحكم والامثال والاشعار حتى اطلقوا علىّ اسم شاعر القصر. ؟ نعم . نعم . ياعبدى ! أنت أيها العبد !

(يظهر العبد داخلا مسرع الخطى . وهو شاب لاتفارق الابتسامة شفتيه :) .

العبـد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

السـيد : أسرع .. أسرع .. نفذ ما اقوله لك ..

العبـد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

السـيد : هيا أحضر المركبة وأعدها لأمضى الى القصر .

العبـــد : امض ياسيدى .. أمض .. سأكون تحت تصرفك ..
(يتلكأ قليلا . السيد يكتشف انه لم يتحرك من مكانه . يرفع حاجبيه ويفتح فمه دهشة ويهم بالكلام فيسأله العبد :)

العبـــد : معذرة ياسيدى .. هل قلت القصر ؟

السـيد : ألم تسمع ماقلته ؟ لماذا لاتتحرك ؟

العبـــد : أى قصر تقصد ياسيدى ؟ قصر الملك ، أم الحاكم ، أم الوزير ، كبير الكهنة ... .

السـيد : ماأغرب اسئلتك فى هذا الصباح الغريب ..

العبـــد : اعذرنى ياسيدى ، فلابد أن أعرف لأى قصر ستتجه . ان الزينة التى أضعها على المركبة والخيل ستختلف فى كل حال .

السـيد : تقول أى قصر ؟ ! الذى تعودت أن أذهب اليه ..

العبـــد : اعذرنى مرة أخرى اذا ذكرت سيدى بأن هذه العادة قد توقفت منذ شهور .. (ينظر اليه مشفقا ثم يسير خطوات نحو الباب ويقف عنده . السيد يحول وجهه عنه وينظر من النافذة وهو يكلم نفسه ..) .

السـيد : نعم .. نعم .. كيف غاب هذا عنى ؟ لقد تنافسوا على طعنى وتسديد حرابهم الى صدرى وظهرى . أولئك الشعراء الصغار والكتبة الأوغاد حتى الملك الذى كان يجلسنى بجواره ويستعذب سماع شعرى لم يستطع ان يفعل شيئا . وعندما اسرعت اليه غاضبا ثائرا قال وهو يتحاشى النظر فى عينى : لقد أحكموا المؤامرة عليك أعدوا القوس والسهم ووضعوه فى يدى لأصوبه الى قلبك . اذهب . اذهب . لكن لا تنس ابدا أننى أحب شعرك ..

العبـــد : (مقاطعا) : سيدى ..

السـيد : لاأيها العبد ... لن أذهب للقصر .. لن أذهب ابدا ...

العبـــد : لاتذهب ياسيدى .. لاتذهب .. ربما يوقعونك فى حفرة

جديدة .. أو يلفون حبلا آخر حول رقبتك .. ستسير فى طريق لا تعرفه .. وستندم على ذلك ليل نهار ..

السـيد : (لنفسه) أندم ؟ وهل سأكون حيا لكى أندم ؟ مازلت طيبا أيها العبد .. وربما جعلتك الايام والمحن المتوالية حكيما .. (للعبد بعد فترة صمت) أنصت الىّ أيها العبد .. أنصت الىّ ..

العبـد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا .. (يقفز مقتربا منه فى خشوع)

السـيد : أسرع .. أسرع .. سنتجه وجهة أخرى ..

العبـد : والى أين ياسيدى ؟

السـيد : الى الخلاء .. الى الريف الواسع المفتوح .. أريد أن أشم رائحة الخضرة .. أريد ان أتنفس هواءً نقيا ..

العبـد : هل أجهز أدوات الصيد ؟

السـيد : وكلاب الصيد أيضا .. هل كنا نفعل غير هذا فى الخلاء ؟

العبـد : اذهب ياسيدى .. اذهب ..
فالصياد يملأ جوفه ،
وكلاب الصيد ستكسر عظام الفريسة ،
والصقر سينقض عليها ،
والحمار الوحشى سيعدو مسرعا
الحراب ذات العيون النافذة ستتعقبه وتخترق لحمه ..

السـيد : (بعد قليل يكلم نفسه متأففا ، لايلحظ أن العبد يسمعه) : لاياعبدى .. لا .. لن أذهب للخلاء .. لن أمضى فى رحلة الصيد .. (ملتفتا الى النافذة) فى كل مرة اصطدت فريسة كنت أقول لنفسى : اننى أنا الفريسة . انظر فى عيونها الميتة التى تحدق فىّ وأقول : عبث وباطل مافعلت . عبث وباطل .. وهل أنسى العيون الجائعة التى كانت تلتهم أجساد الفرائس الذبيحة على طريق العودة ؟ عجائز وصبية وأطفال تجرحنى نظراتهم الخرساء وتتهمنى : لعنتك الآلهة ولعنت كل الصيادين ! وتظل العيون المحرومة تتابعنى حتى أصل الى عتبة دارى وأتخفى فى فراشى (ملتفتا الى العبد

وهو يصيح) لا ياعبدى .. لن أذهب ابدا ..

العبـــد : لاتفعل ياسيدى . لاتفعل ..
إن حظ الصياد منقلب ،
وكلب الصيد ستتكسر أسنانه ،
وصقر الصياد سيرجع الى عشه ،
والحمار الوحشى سيهجع فى حظيرته ،
حظيرته الآمنة ببطن الجبل العالى ..
لاتذهب ياسيدى .. لاتذهب ..

الســـيد : معك الحق . سأبقى . سأبقى . ولكن أنصت الىّ أيها العبد ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا .

الســـيد : أحضر الماء لأغسل يدى ..

العبـــد : على الفور ياسيدى .. على الفور .. هل تريد ..

الســـيد : : (بغضب) : أريد أن أتناول طعامى ..

العبـــد : أجل ياسيدى .. أجل .. تناول طعامك مرة ومرة .. لقد أعددت كل شيء . الافطار الذى نسيته والغداء الذى لم تطلبه . ان الطعام الشهى يريح الذهن من متاعبه .. و «شمس» (★) نفسه يرعى من يطهر يديه .. (يذهب ليحضر الماء) .

الســـيد : افطارى وغدائى معا ! .. يالك من عبد طيب القلب .. أم ان الحكمة قد فاضت منك فأغرقتك فى بحار السذاجة ؟ ألم تلاحظ اننى أغص باللقمة والشربة التى تحضرها الىّ ؟ افطارى وغدائى ؟ فى كل يوم أسأل نفسى : لماذا كتب علىّ أن آكل وأشرب وحدى ؟ كانت الكلمة هى خبزى ، كان الشعر هو اكسير حياتى .. وهأنا لم أشبع ولم أرتو .. كلما وضعت اللقمة فى فمى رأيت العيون الجائعة تلاحقنى كأنها تمد مخالبها لتسحبها من حلقى .. وأبصرت عيون الاطفال الذين لم أنجبهم وهى تصرخ باكية : لماذا لايكون لنا

نصيب فى هذه اللقمة ؟ لاياعبدى .. لا .. لن آكل ولن أشرب !

العبـــد : (يرجع وينحنى امامه ويريد أن يصب الماء على يديه) : ولكنك ستغسل يديك ياسيدى ..

الســـيد : (مفاجئا) : ولا هذا ايضا .. لن اغسل يدى .. ولن آكل ولن أشرب ! ..

العبـــد : لاتأكل ياسيدى .. لا تأكل ..
الجـــوع والاكـــل ،العطش والشرب ،
ماذا أفاد الانسان منها ؟
(يتطلع من النافذة الى الافق البعيد حيث تلوح اكوام الخرائب القديمة) .
أسأل هــؤلاء ..
ماذا أفاد الانسان ؟
ماذا أفاد الانسان ؟

الســـيد : (الذى لم ينتبه لما قصد اليه العبد) : اسمع ياعبدى .. اسمع ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

الســـيد : قررت أن أكون أسرة ! ..

العبـــد : مرحي ! مرحى ! تكون أسرة ؟!

الســـيد : نعم . وأنجب اطفالا ..

العبـــد : خيرا تفعل ياسيدى .. لتكن لك أسرة واطفال ..
فالرجل الذى يبنى بيتا ويربى اطفالا
يجعل من نفسه ملكا
على عرش مملكة صغيرة
يسكنها شعب صغير ،
يصبح راعيا مسئولا
عن مصير قطيع محبوب
يعتمد عليه فى زاده ومائه

وصحته ومرضه ، ونومه ويقظته
افعل ياسيدى ! افعل !
ستجد طعاما ينتظرك ، وسراجا يضىء بيتك ، وفراشا يدفىء جسدك
كون أسرة وانجب اطفالا
فما أحلىٰ أن يجروا حولك فى هذه القاعة
وهم يقفزون ويتصايحون :
علمنا أن نقرأ هذى الالواح ؟
أسمعنا شعرك ياأبتاه !

السـيد : (لنفسه) : أقرأ لهم الالواح التى لايقرأها أحد ؟ أسمعهم شعرى الذى لاأطيق سماعه ؟ أواه ! ماأشد سذاجتك أو حكمتك !

العبـد : ماذا تقول ياسيدى ؟

السـيد : أقول لا .. لاياعبدى ..

العبـد : لن تكوِّن أسرة ؟

السـيد : ولن أنجب اطفالا ..

العبـد : لاتفعل ياسيدى .. لاتفعل ..
تفتح بابك لعروسك
فيصير الباب هو الفخ المطبق بالفكين عليك ،
تحملها يوما لفراشك
واذا بك فى اليوم التالى
تحمل جبلا يرهق كتفيك ،
ويمر الزمن على العذراء الضاحكة العين الباسمة الفم
فيخرج من شفتيها النصل المسنون الحد
أو الافعى النافثة السم
لا .. لاتفعل ! لاتبنى بيتا .. لاتستسلم
لا تغرق نفسك فى بحر الدين !

السـيد : لا .. لن أفعل .. لن استسلم .. هل تعرف ماذا أنوى الآن ؟

العبـــد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..
الســـيد : سأعشق امرأة !
العبـــد : اعشق ياسيدى .. اعشق ..
العاشق ينسى الحزن ويطرد خوفه ،
يحيا فى حلم وردى يصحو منه
على حلم آخر وردى ،
يخطو العاشق للمعشوق وتسكره الخفة ..
يحدوه الأمل وتعروه الرجفة
يضنيه اليأس وتتجدد فى الصدر اللهفة
اعشق .. ما أحلى العشق اذا حاول
أن يفتح اسوار العفة
ويعود ومعه الصيد الرائع
ان ساعدت الصدفة !
الســـيد : هل هذا رأيك ياعبدى
العبـــد : رأيى ؟ ألم تقله لك هذه الالواح ؟ ألم تسمعه من هذه الاشعار ؟ اين اغانيك ياعشتار الجميلة ؟ أين ذهبت ألحانك التى عرفتها للراعى البرىء فخلبت لبه ؟
(يتجول بين الالواح والتماثيل ويبتعد قليلا ..)
الســـيد : (لنفسه) : وأين لعناتها الرهيبة على رأس جلجاميش وفوق اطلال أوروك ؟ أيها العبد المسكين ! أنك لاتعرف هذا . ويعود ومعه الصيد الرائع ان ساعدت الصدفة ! لكن الصدفة لم تساعد . وعشتار الجميلة لم تغن لى لحنا ولم تصب على رأسى لعنة . كم ذهبت اليها أحمل اثقال الالواح التى دونت عليها شعرى .. كانت تضحك فى طيش وهى تردها بيدها قائلة : شعرك صعب جدا .. يبدو أنك ضليع فى اللغة ! وليلة وقفت معها تحت بوابة المدينة .. كانت عين الاله الاكبر مردوخ تطل غاضبة علينا .. وسيل المطر ينهمر بلا رحمة فوق رءوسنا ويحيل أشعارى الى طين عكر يتساقط على الأرض . مددت يدى لأدفىء يدها فأبعدتها .

حاولت أن أدفئها بثوبى وأنفاسى فادارت وجهها وظهرها . عرفت ليلتها انها ليست لى . وفى ضحى اليوم التالى لمحتها تدخل معبد الاله «شمس» وذراع الكاهن الأكبر القوية تلتف حول خصرها كما تلتف شبكة الصياد حول حمامة بيضاء .. وما هى الا ليلة حتى تركها الكاهن الأكبر لتنهشها الأنياب .. وعندما دفعت المبلغ المحدود ودخلت عليها حجرتها رفعت رأسها ببطء ونظرت الىّ طويلا .. ثم خفضتها وجرت الدموع على وجنتيها .. لملمت ثوبى واستدرت خارجا فى صمت .. هذا هو الصيد الرائع أيها العبد الخبيث . لا .. لا .. لم تساعد الصدفة ولم أساعدها .. ولذلك امتلأت دارى بهذه الالواح ..

العبـــد : (يرجع وهو يمد يده بأحد الالواح) : وجدتها ياسيد ...

السـيد : وأنا لم أجدها ولن أبحث عنها .. أعد هذا اللوح الى مكانه ..

العبـــد : ألا تريد ؟ ..

السـيد : قلت أعده الى مكانه .. لا أريد أن أقرأ ولا أريد أن اعشق ..

العبـــد : كما تشاء ياسيدى .. لاتعشق .. لاتعشق ..
(يضع اللوح جانبا وينظر إلى النافذة)
فالمرأة جحر أو حفرة
فخ ، مصيدة ، هاوية خطرة
المرأة خنجر حديدى مسنون يقطع رقبة الرجل . المرأة ..

السـيد : ارجوك .. الزم الصمت ..

العبـــد : امرك ياسيدى .. مادمت تريد هذا ..

السـيد : أريدك ان تطيع صمتى كما تطيع كلامى ...

العبـــد : هل اتركك لصمتك ياسيدى ؟

السـيد : نعم .. اريد أن أكون وحدى ... (يصمت . يتحرك العبد

* هو إله الشمس كما هو إله العدل عند البابليين ، ويقال إنه كان يتمتع بشعبية قربته من قلوب البسطاء من عامة الناس .

للخروج فيناديه فجأة :) آنت ...

العبـــد : أمرك ياسيدى ..

الســـيد : لا .. لن أصمت ... لن ألزم الصمت !

العبـــد : علىّ أن أطيع كلامك كما اطيع صمتك ..

الســـيد : اسمع ياعبدى ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

الســـيد : سأقود ثورة !

العبـــد : ماذا ياسيدى ؟!

الســـيد : قلت لك : سأقود ثورة !

العبـــد : ثـــورة ؟!

الســـيد : نعم . نعم . لايمكن أن أبقى هكذا كمؤشر الميزان الذى تميل به كفة وتخفضه أخرى .. قلت لك لقد صممت ..

العبـــد : على أن تقود ثورة ؟ ..

الســـيد : لابد .. لايمكن ان انظر وأسكت ..

العبـــد : قُد ثورة ياسيدى .. قُد ثورة ..

لأنك إن لم تفعل

فمن يثأر لك ،

من يخلص حقوقك ،

من يفضح الكذابين والمزيفين ،

من يفتح عين الشعب عليهم ؟

(يتقدم نحو النافذة مشيرا الى مدينة الموتى ..)

الســـيد : الشعب ؟ هل قلت الشعب ؟

العبـــد : (مستطردا فى حماس ، بينما السيد غارق فى رؤاه) نعم . نعم . هؤلاء .. كلهم منسى فى مدن منسية ... لو وجد الأموات من يثور لأجلهم ما ماتوا تعساء الى هذا الحد .. ولو وجد الاحياء من ينصفهم وينتقم لهم ما عاشوا كالأموات ...

الســـيد : (لنفسه ، فى نفس الوقت تقريبا مع العبد) : الشعب ؟ أين

هى عينه التى تتكلم عنها ؟ هل رآتنى أو شعرت بى ؟ لو ذهبت اليه فلن أنجو منه . سيسلمنى أو يسخر بى ... (ثم بصوت مرتفع) لاياعبدى .. لا ..

العبـــد : (كأنه يستيقظ من حلم ، يسرع اليه) : ماذا ياسيدى ؟ .. بماذا تأمر ؟

الســـيد : لن أقود ثورة .. لن أقود ثورة ..

العبـــد : كما تشاء ياسيدى ..
فالثائر إما أن يقتل
أو يسلخ جلده ،
تُسمل عيناه
ويلقى القبض عليه
وينسى ـ كالكلب الميت ـ
فى الســـجن ..
لاتفعل ياسيدى ... لاتفعل ..

الســـيد : لن أفعل .. معك الحق (بعد قليل) ولكن (لنفسه) كيف انظر فى وجوه أهلى ؟ كيف ألاقى المساكين عندما أزور قريتى واتجول فى ضيعتى ؟ لا .. لا .. اسمع ياعبدى ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى ... هأنذا ...

الســـيد : سنعطى المساكين ياعبدى ،
سأقرض الفقراء فى قريتى
وأتصدق بالطعام على أهل ضيعتى

العبـــد : تصدق ياسيدى تصدق ،
أعط المساكين وأقرض الفقراء
من يتصدق تزداد غلته
ويكثر مكسبه
ومن يحسن للفقراء
يبقى قمحه هو قمحه ..

الســـيد : لاياعبدى .. لن أقرض أحدا .. لن أتصدق على أحد ..

العبـــد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

لاتتصدق ولاتحسن الى أحد ..
فالاحسان كالعشق
واسترداد القرض مثل انجاب الاطفال ..
سيأتون على قمحك
ثم يصبون اللعنات على رأسك
ويسلبونك الفوائد التى جنيتها
السيد : (لنفسه) : معك الحق ..
فعلوا هذا دائما ...
فعلوه دائما ... (يسرح ببصره خلال النافذة)
العبد : (لنفسه) : نسى سيدى انه لايملك مايقرضه ..
وأنهم أخذوا منه ضيعته ! ...
السيد : أنصت الىّ ياعبدى .. أنصت الىّ ..
العبد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..
السيد : لايصح أن أفكر فى قريتى وضيعتى .. وأنسى بلدى ..
العبد : ماذا تنوى أن تفعل ياسيدى ؟
السيد : سأقدم خدمة عامة الى بلدى ..
العبد : قدم ياسيدى .. قدم ،
من يفعل ذلك يبارك مردوخ عمله
السيد : (لنفسه) : بلدى وشعبى ؟ .
ما أغرب هاتين الكلمتين .
حين تخرجان من فمى ..
العبد : (الذى سمعه بصوت خفيض) :
حقا حقا ..
ماأغرب هاتين الكلمتين
حين تخرجان من فمك ..
السيد : هل قلت شيئا ؟ ..
العبد : لا ياسيدى .. لا ..
السيد : لن أقدم خدمة الى بلدى

لن أفعل شيئا ولن أتبرع بشيء .

العبــد : لاتفعل ياسيدى .. لاتفعل ! (مشيرا الى النافذة)

اصعد فوق أكوام الخرائب وتمش هناك

وانظر لجماجم الأعلين والأدنين

من كان الظالم منهم ومن المظلوم ؟

من كان الشرير ومن كان الطيب ؟

كلهم منسى فى مدن منسية

الســيد : كلهم منسى فى مدن منسية ..

ألم تقل هذا من قبل ؟

العبــد : ربما ياسيدى .. ربما ..

(لنفســه)

من ذا الذى طالت قامته ـ

حتى صعد الى السماء ؟

ومن ذا الذى اتسع منكباه

حتى احتضن العالم السفلى

واحتوى العالم بذراعيه ؟

الســيد : هل قلت شيئا ؟

العبــد : لاشىء ياسيدى .. لاشىء ..

الســيد : اذن فأنصت الىّ ..

العبــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

الســيد : أحضر ماء لأغسل يدى ..

العبــد : هل أعد الطعام لسيدى ؟

الســيد : لا .. لا.. أريد أن أضحى لالهى ..

العبــد : ضح ياسيدى ضح ..

قدم القربان لالهك

فمن يقدم الاضاحى لالهه

يسر للصفقة التى يقوم بها

انه يبادل قرضا بقرض

ويريد دينا بدين ..

السـيد : حقا ياعبدى .. ماأصدق قولك !

العبـد : خلق الانسان ليكون عبدا للآلهة
هو خادمهم ، يطلب منهم الحماية
ويتوقع الجزاء
الذى يتوقعه الخادم من سيده
فطريق الطاعة والعبادة
هو طريق النجاح والتمتع بالحياة .

السـيد : (لنفسه) كم ضحيت لالهى الخاص
كم خاطبته قائلا :
لم أهملتنى ؟
لم غادرت معبدك فى بيتى ؟
من ذا الذى يعوضك عنى
بواحد يطيعك ويعبدك مثلى ؟
كم تضرعت اليه وقبلت قدميه
كم توسلت اليه
ان يذكرنى عند الاله «مردوخ»
لعل مردوخ يتوسط لى عند «شمس» ، وشمس يسترحم «انليل» من أجلى ، وانليل يستعطف سيد الالهة « إيا» ..
لكن عونه تأخر عنى
وهأنذا كما يقول عبدى
منسى فى مدينة منسية
قبر بلا شاهد منصوب فوقه
ولا زائر يطوف عليه .
اسمع ياعبدى .. اسمع ..

العبـد : نعم ياسيدى .. نعم ..
لك الامر وعلىّ الطاعة ..

السـيد : لن أضحى لالهى .. لن أفعل ابدا ..

العبـد : لاتضحى ياسيدى .. لاتضحى ..

علم الهك الخاص أن يركض وراءك
سواء سألك أن تقدم له الطقوس
أو طلب منك ان تؤدى له فريضة
أو توسل اليك لأى شىء آخر ..

السـيد : صدقت ياعبدي .. سأعلمه أن يسعى ورائي .. سأهمله كما أهملني .. وعليه أن يعلم انه محتاج لعبادتى كما أنا محتاج لطاعته .. لكن ياعبدى .. لكن

العبـد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

السـيد : لايمكن أن تكون صادقا وكاذبا فى وقت واحد . لايمكن ان تكون خيرا وشريرا ، عاقلا وأبله ، حكيما ومخادعا فى نفس واحد .. ماذا أفعل اذا ؟

العبـد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

السـيد : هل أذهب للقصر أو لا أذهب ؟ أرحل للصيد أو لا أرحل ؟ هل آكل أو لا آكل ؟ أكون أسرة أو أبقى وحيدا ؟ أعشق أو لاأعشق ؟ أتصدق أو لا أتصدق ؟ أقدم خدمة عامة أو لاأقدم ؟ أضحى لالهي أو لا أضحى ؟ هل يمكن أن يستوى الفعل وعدم الفعل ؟ ان يتكافأ الخير والشر والظلم والعدل ؟

العبـد : أنت الذى تسأل ياسيدى ..

السـيد : وأريدك أن تجيبني بلا مواربة ..

العبـد : تفضل ياسيدى .. تفضل ..

السـيد : ما الخير اذا ؟

العبـد : الخـــير ؟!

السـيد : نعم . الخير . اذا كان كل شىء يتساوى مع كل شىء : الصدق والكذب ، الاحسان والاساءة ، العشق والكره ، الزواج وعدم الزواج ، الوفاء والجحود ، العبادة والتجديف .. أين الخير اذا ؟ ..

العبـد : فى مدن منسية كهذه المدينة ؟

السيد : ما شأننا بهذا ؟ لقد قلت هذا من قبل .
العبد : (رافعا صوته بالتدريج) : أنا الذى يسأل الآن .
في حضارة محتضرة كهذه الحضارة ؟ وسط خرائب القيم
التى تشبه هذه الخرائب ؟
السيد : ليكن .. ليكن .. المهم أين الخير ؟
العبد : (رافعا صوته) : الخير أن أدق عنقك ..
السيد : (مقاطعا) : كيف تجرؤ على هذا القول ؟
العبد : (مستمرا) :
أو تدق عنقى ..
أن القيك فى البحر
أو تلقينى فيه ..
السيد : ماهذا ؟ ماذا أسمع ؟ .
العبد : ما لابد أن أقوله ولابد أن تسمعه .. لقد استمعت حتى الآن
ياسيد .. عشرون عاما وأنا أسمع وأطيع .. وعليك من اليوم
أن تستمع ...
السيد : عبدى .. اننى احذرك ... سأقتلك قبل ان تقتلنى ..
سأرسلك الى هناك قبل ان ترسلنى ..
العبد : لابأس .. أنا راض بهذا .. المهم أن تفعل شيئا ... أى
سلاح تختار ؟ بأى شيء ستقتلنى ؟
(يقلب أدوات مختلفة ينتقل بينها بسرعة) .
بهذه الفأس ؟ هذا الازميل الذى طالما نحت به كلماتك ؟
هذه المطرقة وهذا المخراز وهذه المسامير التى لم تستخدم
حتى الآن فى عمل مفيد ؟ المهم أن تفعل ياسيد . حتى لو
كان هذا الفعل هو قتلى .. تكلم .. تكلم ..
السيد : (يرتج عليه) : لا أصدق .. لا أصدق ..
العبد : بل صدق كل شيء .. لابد ان تتكلم ..
السيد : وماذا تريدنى ان اقول ؟
العبد : تقول كيف تفعل هذا وأين ..
السيد : أفعل .. ماذا أفعل ؟

العبـد : هذا السؤال الأوحد .. تفعل .. تفعل .. تفعل .. حتى ولو كان هذا الفعل هو قتلى .. هل اخترت هذا الازميل ؟ هذه المطرقة ؟ هذه الفأس ؟ . أن تفضل واحدا من هذه التماثيل لتهشمه فوق رأسى .. أم لوحا من الألواح المزدحمة بأشعارك ؟ .

السـيد : فظيع .. فظيع ..

العبـد : أم تختار مكانا آخر تتنفس فيه للمرة الاخيرة هواءً نقيا .. على شاطيء النهر مثلا .. أو بعيدا فى الخلاء .. وسط الاحراش التى تعودت أن تذهب اليها فى رحلة الصيد ؟..

السـيد : ما هذا الذى تطلبه منى ؟ كيف تتصور أن أفعل هذا ؟

العبـد : المهم أن تفعل شيئا .. هل تؤثر أن أقتلك أنا ؟

السـيد : تقتلنى ؟!

العبـد : نعم نعم .. إما أن تفعل أو لاتفعل .. بهذا الازميل ؟ هذه الفأس ؟ هذه المسامير ؟ هذه التماثيل ؟ هذه الالواح ..

السـيد : (مذعورا) : أيتها الآلهة ! .. أين أنت ياالهى الخاص ؟ الىَّ يامردوخ ..

العبـد : تعلم انك استجرت بهم فلم يكترث بك أحد .. تعلم انك رفضت أن تقدم لهم الأضاحى أو تمتنع عن تقديمها ..

السـيد : حقا .. حقا .. لكن ماذا أفعل ؟

العبـد : أنت وحدك تجيب على هذا السؤال ..

السـيد : تكلم أنت .. فلم أعد أقوى على التفكير ..

العبـد : اسمعنى اذاً للمرة الأولى والاخيرة .. فلتكن شاهدا على هذه المدينة الميتة .. مادمت لاتستطيع ان تنقذها ، فلتكن على الاقل شاهدا عليها ..

السـيد : (كأنه يكلم نفسه) : شاهدا عليها ؟ ..

العبـد : وتخرج من سأمك وملك .. تفعل شيئا بدلا من أن لاتفعل .

السـيد : وأنت ياعبدى .. ماذا ستفعل ؟

العبـد : لم أعد عبدك .. ولا أسأل هذا السؤال ..

السيد : (مستعطفا) : تعلم أننى لاأحتمل العيش بعدك ثلاثة
ايام .. تعلم اننى لا أستغنى عنك ..

العبد : أنا أيضا كنت كذلك ..

السيد : كنت كذلك ؟ ! والآن ؟

العبد : الآن لم أعد عبدا لك .. ولم تعد سيدا لى ..

السيد : ماذا أسمع ؟!

العبد : لقد سمعت بالفعل ..

السيد : ولكنه فظيع .. فظيع ..

العبد : المهم الآن ان تبدأ .. أن تكون شاهدا ..

السيد : (مقاطعا) : فهمت .. وأنت ؟ ..

العبد : ماذا ستفعل ؟ حسبتك فى غنى عن هذا السؤال .. سأخرج
الى هذه المدينة .. واذ لم تكترث بى فسوف أمضى الى
القرى والحقول .. هنا أو هناك .. ينتظرنى الكثير .. ينتظرنى
الكثير ..

السيد : وتتركنى وحدى ؟ ألن تعود لسيدك ابدا ؟

العبد : (متهيأ للخروج) : نعم نعم .. عندما لايقول أحد ياسيدى
ولايقول أحد ياعبدى ..

السيد : لك هذا .. المهم أن تعود ..

العبد : عندما تبدأ شهادتك ..

السيد : سأبدأها من الآن .. هأنذا أدون أول كلماتى ..
(يمسك الأزميل .. يبدأ الكتابة ..)

العبد : الآن بدأت تفعل .. الآن يمكننى ان اذهب ..

السيد : قبل أن تعدنى بأنك ستعود ...

العبد : أعدك بهذا .. وأودعك أيضا ..
(يتجه العبد الى سيده .. يمد يده اليه فيعانقه السيد .
يغيبان فى عناق طويل قبل أن يتجه العبد نحو الباب ..)

السيد : الوداع .. لا تنس وعدك ..

العبد : الوداع .. ولاتنس أن تفعل ما اتفقنا عليه ..

السـيد : لقد بدأت بالفعل ...
العبـد : وأنا بدأت قبل أن أبدأ ..
(يضع الفأس فى كيس فيه ملابسه ..)
السـيد : الوداع يا ....
العبـد : الوداع يا .... سيد !

رؤيا ننجـــال
ترتيلة مسرحية فى خمسة مشاهد

- ١ -

(ننجال ، ملكة أور ، فى حجرة نومها . تصحو من كابوس خانق وتدور حول نفسها كالمجنونة . بعد قليل تفتح النوافذ المطلة على المدينة السومرية النائمة فى أحضان اله القمر الشاحب ننَّا أو تنهار ...)

ننجـــال : (مذعورة مضطربة الشعر والانفاس والثياب) :

ماذا جرى لى ؟
ماذا جرى لأمى ومدينتى أور ؟
وهذا الذى رأيته الآن ، هل يمكن أن يكون حقيقة ؟
هل دمر ملكى وخربت مدينتى وضاع شعبى المسكين ؟
آه ! مذعورة أصحو من نومى الآن ..
والرؤيا سلبتنى الانفاس وحرمتنى الاحلام ..
زلزال ينفضنى . نار تشتعل فى ثيابى وقصرى وكنوزى ..
بروق ورعود وجيوش السحب السوداء ..
اعصار يقتلع الشجر والبشر والمعابد والبيوت حيات
الوادى وعقارب الجبل وجراد الصحراء
راحت تطاردنى من طريق الى طريق .

وأنا أصرخ وأستغيث ، أبكي وأولول :
آه يا مليكتي ننجال !
آه يامدينتي أور !
كيف حدث هذا كله ؟
كيف امكن ان يحدث ؟
(تستريح على اريكة وتلتقط انفاسها ، تنهض بعد قليل متجهة الى مرآة مثبتة على الحائط وتتأمل وجهها) .
أهذه هي ننجال ملكة أور ؟
أهي التي وضع انليل على رأسها التاج وسلمها الصولجان
ونظر اليها بعين الرضا وقال :
لتخرج من فمك أوامر العدالة ؟
الوجه ورقة خريف صفراء ،
والعين حفرة غائرة ،
والجبين شعلة مطفأة
والجسد الناصع كالجدول
غطته الاتربة وملأته أخاديد
لا .. لا .. ليست هي ننجال ! ليست هي ننجال !
ما أنا الا قصبة هشة تذروها الاعاصير
ما أنا الا مركب واهن في ماء آسن
هجره الصياد وتخلت عنه الريح
(تتجه الى النافذة وتفتحها وتطل منها)
وأنت يامدينتي ...
هل مازلت سيدة المدن وسيدة الأقدار ؟
والاعصار الذى هب عليك الآن ،
هل ابقى على بيت أو معبد أو انسان ؟
سمعته وهو يهدر كالطوفان
والرعود تزمجر كطبول الغزاة المتوحشين
والبروق مشاعل تقذفها الشياطين

لتضىء طريق البرابرة القادمين .
لكنى انظر فى الليل ولا أرى
هل انطفأ الحريق ؟
أمد أذنى كحيوان أعمى
هل سكن الرعد والبرق الى حين ؟
وأنت ياالهى ومليكى وزوجى
انت يانانا الحبيب ...
ارفع عينى اليك فأراك كعهدك
تبتسم كالحكيم العجوز أو الطفل الرضيع
هل تسخر منى ومن رؤياى
أم تنعى أور وملكة أور ؟
آه ! اختلطت العلامات والاشارات
سكتت الآلهة وطويت الواح الاقدار
لكن مازال الرعد يدوى فى أذنى ،
مازال الطوفان يسيل
وللاعصار هدير
(تترك النافذة وتتوسط الحجرة وهى تصرخ :)
ياحراس ! أنتم ياخدمى وعبيدى ؟
من رأى منكم ما رأيت ؟
من سمع ماسمعت ؟
تعالوا الىّ .
احمونى منها واحموا أور
لاأحد يتحرك .. لاأحد يجيب ..
هل مات جميع الحراس ؟
هل غرقوا فى الطوفان ؟
(تذهب الى الباب وتفتحه وتخاطب حارسا لانراه :)
أنت .. أنت !
انه نائم .. الجميع نائمون ..

والكارثة تقع على رأسى ورأس أور ..
أنت .. أنت ... (نسمع صوت الحارس)
- مولاتى ؟! ماذا أيقظك من النوم الآن ؟
- الرؤيا ياغبى .. الكارثة التى تزحف علينا ..
- رؤيا ؟ .. كارثة ؟ أية كارثة يامولاتى ؟
- يفرك عينيه ويتثاءب ..
حين تنام عيون الحراس
ماذا يمنع الكوارث الزاحفة على الابواب ؟
ماذا يمنعها من تدمير البيوت واهلاك النفوس والنباتا
والحيوان ؟
أصرخ فيه صائحة :
- ألم تسمع الرعود ؟
ألم تر البروق ؟
ألم تشعر بالاعصار والطوفان ؟
والجراد الذى هبط علينا من الصحارى والجبال
- الجراد ؟ .. والاعصار والطوفان ؟
البروق والرعود ؟ ..
ماذا تقولين يامولاتى ؟
ماذا تقولين ؟
- أقول ماينبغى أن يفزعك أيها الحارس النوام .
- باقى الحراس كذلك نائمون
- والقصر ينهار وتتناثر أحجاره ؟
- القصر بخير يامولاتى ..
مدد جسده وتغطى بالليل والسماء ..
- والليل يلد الكوارث ياغبى ..
والسماء ترسل النذر والعلامات ..
وملكتكم تصرخ وأنتم نيام .
- نامى أيتها الملكة ..

وليحرسك ويحرسنا انليل ..

ننجــال : شعرت بالحنين الى مربيتى . ذهبت الى حجرة نوُمها الملحقة بجناحي . هاهى ذى نائمة فى فراشها ، ووجهها الطيب الحبيب يشع منه الرضا والامان ، كأنها مستبسلمة لرعاية الهها الخاص . ناجيتها هامسة وأنا أتأمل قسماته الهادئة : حتى أنت يامربيتى ومرضعتى الحنون ! حتى انت لا تفزعك رؤياى ولاتقفين الى جوارى ؟ أنت يامرفئى وميناثي . على أى شاطىء ترسو سفينتى التائهة ان لم ترس على شاطئك ؟

ـ أغلقت الباب ورجعت الى حجرتى .

رجعت وكلى دمع وبكاء
لا أحد يشاطرنى ألمى
لاأحد يرى رؤياى ..
هل يمكن أن تكذب ؟
هل يمكن ان تخدعنى العلامات ؟
وبكائى فى الليل ودمعى
رجفة جسبدى كالشجرة فى فك الاعصار
رعشة قلبى كالطير الواقع فى شبكة صياد ؟
والألم الحارق بذراعى وأعضائى
وأنا أتشبث بالدفة والمجداف ..
لا لا لا .. لم تكن مجرد رؤيا
حومت تهاويلها فى قفص الرأس ،
ولا مجرد حلم
تقلب كالطفل الصريع فى تابوت القلب ..
لقد ظللت أياما طويلة أتوقع يوم العاصفة ذاك
يوم العاصفة المقدر لى
وفى الليل وأنا فى فراشى
وعندما حرمت الاحلام وحرمت النسيان

وحط على كاهلى الخوف من دمار العاصفة والطوفان
عرفت أن لا مهرب من يوم العاصفة ذاك
وأن البكاء المر لم يقدر على وحدى
أن البكاء المر قد قدر لبلادى .
صرخت فيه قائلة : عد يايوم العاصفة ! ..
عد الى صحرائك ! ..
ارفع يدك عنى يايوم الهلاك !
إرفع يدك يايوم الهلاك المقدر لى ولبلادى !
بسطت جناحى كالطير
وكالطير طرت فوق مدينتى
توقف أيها الاعصار !
تراجع أيها الطوفان !
رحت ابحث عن شعبى
عد أيها القطيع المشرد فى الجبال والوديان !
عد لتحمى أسوار مدينتك !
ورأيت وياالهول مارأيت :
تحولت أبواب المدينة ومداخلها الى طين ،.
الحقول والمروج العظيمة تراكم فوقها التراب
عادت اشجارها ملعونة الى الغابات
بدت كحقل متفحم بعد الحريق .
مصايد الاسماك اصبحت بركا ومستنقعات ،
البساتين المروية جفت من العسل والخمر
القصور المشيدة تحولت الى خراب
رجع آجرها الطينى الى حالته الاولى في الماء
وفى المواضع التى كانت تقام فيها الشعائر والطقوس
راحت الثعالب التى تأوى الخرائب تهز ذيولها
وعلى الضفاف التى كانت تجر فيها القوارب
لم تنبت سوى الاعشاب الضارة والاشجار الباكية

وفى السهول لم ينبت سوى قصب الدموع
ولم تسع الا الديدان وعقارب الجبل والحيات
وبدلا من المياه العذبة
جرت المياه المرة .
امتلأت طرق المدينة باللصوص
ومن الجبال البعيدة انحدر البرابرة الوحوش
سرقوا الزوجة من زوجها والبنت من أمها
ذبحوا الطفل الرضيع والجد العجوز
والمجاعة فتكت بالجميع .
وأنا التى كنت ملكة على الجهات الاربع
همت على وجهى فى الدروب التى ملأتها الجثث
حاولت أن أستعيد قطيعى الذى طاردته الذئاب
وعندما رأيت ان يوم العاصفة المقدر ذاك
يوم العاصفة العاتية المحتوم قد كتب على شعبى وعلىَّ
رجعت الى خرائب قصرى
وعندما انزويت فى الركن المظلم سمعت من ينادى :
توجهى الى مجمع الآلهة الكبار
اذهبى الى انليل القوى المقطب الجبين ..
أجبت وكلى دمع وبكاء :
كيف وقد كسر جناحاى ؟
كيف وقد قدروا يوم العاصفة ذاك ؟
قال الصوت : لاتيأسى يانجال !
الى مجمع الآلهة قبل أن يصدر القرار !
وذهبت على جناح الرؤيا الى هناك..
كانوا فى مجمعه المقدس يشربون ويأكلون ويتناقشون
وعندما رآونى اشار اليهم آنو الجليل
آنو سيد الآلهة رفع يده فخيم السكوت .
ركعت أمامهم وبكيت

رفعت يدىّ الفارغتين من النذور والقرابين :
أيها الآلهة العظام
تريثوا قبل أن تصدروا القرار
انتظروا بحق الارملة واليتيم والضعيف والرضيع
ألمح العلامات فى كل مكان
القى رسل الدمار على كل الوجوه وفى كل الاركان
لكن ترجوكم ننجال التى سلمتموها الحكم والصولجان
ترجوكم باسم الورقة فى الشجرة والسنبلة فى الحقل
باسم المحراث وباسم المنجل والفأس
باسم المكيال وباسم الميزان ،
باسم المرضعة وباسم الطفل الراقد فى الحجر ،
باسم البيت وباسم الكوخ ولوح الآجرّ
باسم العبد والسيد ، والكاتب والكاهن ،
باسم البناء وباسم الصياد
لا تصدروا القرار ! لا تصدروا القرار !
سكبت دمعى أمام «آنو»
نعيت حالى أمام «انليل» .
قالت لهما دموعى وزفراتى :
ألا يجوز لأور ألا تدمر ؟
ألا يجوز أن تنجو مدينتى من الدمار ؟
إلا يجوز لأهلها الا يذبحوا ؟
أيها الآلهة العظام ! يامن فى أيديكم ألواح القدر المحتوم !
ألا يمكن أن تراجعوا المكتوب ؟
إلا يمكن أن تغيروا الخطة وتعدلوا المسار ؟
وأنت يا انليل ! ياقائد قواد القوة والجبروت !
إلا يمكن أن تبعد عينك عنى
عين الموت ؟

هل يمكن الا تنطق بالكلمة ضدى
كلمة الموت ؟

لكن «آنو» لم يحرك اصبعا فى يده ولا قدمه ،
وانليل المقطب الجبين لم ينظر الىّ ،
لم تبد على شفته بسمة ولا كلمة .
لم يقل آنو : نعم ! فليكن ماتريدين
لم ينطق انليل : «يسرنى ذلك » ..
أيها الآلهة ! هل صممتم على القرار ؟
هل أطلقتم العاصفة وأمرتم ان يزحف الطوفان ؟
والبرابرة أيضا ؟ هل أمرتم أن يهبطوا علينا كالجراد ؟
ماذا أفعـــــل ؟
الآلهة صامتون ـ والعاصفة فى الطريق .
الىّ ياشعبى المسكين ..
انتظر ! لا تمت من الرعب واليأس !
لاتشرد فى كل سبيل ،
انتظر ياشعبى المسكين ..
أيتها الأبقار والثيران والخيل والحمير ..
أيتها المحاريث والفئوس والرحى والأنوال ..
أيها الآجرُّ فى الجدران والأعمدة والسقوف
أيتها المراكب والمجاذيف والعربات
أيتها الاشجار الباكية على الغدران
والقصبات الدامعة على الشطئان ..
انتظروا ملكتكم ننجال ..
انتظروا ..
انتظروا ...
(تهب على قدميها واقفة وتجرى مسرعة من الباب ..)

....

- ٢ -

(الوقت قبل الفجر بقليل وننجال حافية القدمين مهوشة الشعر زائغة الملامح- والعيون ، متعثرة بلا دليل على دروب أور)

ننجـــال : اسرعت الى الطريق والرؤيا وحش يطاردنى ، نير يعصب عينى ويمسك بخناقى . كان الغسق الاصفر الجاف كالوردة الذابلة تمد خدودها وعنقها الى الندى والشعاع . والبيوت والابراج والاشجار غاصت فى النوم ولم ترفع غطاءها الاسود البليل . كل شىء ساكن حولى . لكن السكوت وحش مريب ، رحم أو قبر يمكن ان تخرج منه مسوخ ومسوخ ، هل خدعتنى الرؤيا ؟ هل كانت جنينا انتفض فى جوفى ولم يشعر بمخاضه سواى ؟ أم أشباحا رقصت واضطربت وتصايحت فى تابوت الرأس المتعب ؟ اننى أتسمع . لا صوت . أتطلع للسماء . لابرود ولاجذوة نار . بل سحب شاحبة تسبح فوق وجه القمر الشاحب ، وجه الهى «ننا» واله أور . وهذه قدمى العارية تطأ الارض الباردة ولا تغرق فى السيول . اذاً فمازال القضاة الأعلون صامتين . هل نطقوا بالحكم وبقى على انليل الجبار أن يقوم بالتنفيذ ! من يدرى ياننجال ! ربما كان الشرطى الآلهة الأكبر بعد الاسلحة ويجهز الجيوش ويصف مواكب الافاعى والعقارب والتنانيين قبل أن يضرب ضربته . آه ! أم ترانى أهذى من أرقى وبكائى طول الليل على نفسى وعلى أور ؟ أفقت على صوت خلصنى من شبكة أسئلتى ، من عقدة مشنقة جدلتها افكارى

السوداء . كان صوتا ممتدا في الليل كمركب بعيد يتقاذفه الموج ويتشبث بالدفة والمجداف المسكور ، كطائر بحرى تحاصره العاصفة وتلطمه هامات الموج الهادر ويفتش في لهفة عن مرفأ أو سفين . لم يكن صوت غضب ولا احتجاج . لم يتردد فيه صدى قوة ولااندفاع . كان عجوزا كحيوان معمر يزحف بنفسه الى مكان يموت فيه ، مرهقا لا أثر فيه لرغبة أو أمل . وسرعان ما وقع بصرى على صاحبه العجوز المرهق مثله . كانت امرأة مثقلة بحمل السنين والاحزان ، وثوبها المسدل على الجسد الضامر المتخشب يشف على الضوء الشحيح عن نخلة عجفاء . وامتد الصوت كحبل ملوى يجهد كي يلتف عليَّ :

الصــوت : (تردده ننجال نفسها ..) :

يا من تتحلين باكليل من حجر اللازورد أو الياقوت
زين بالأوراق والفواكه والزهور الذهبية
لا تضعى الاكليل على صدرك ،
فعاصفة انليل على وشك الهبوب

ننجــال : خيل اليّ أنها تكلمنى . شعرت انها تتهمنى . تسللت يدى دون وعى الى صدرى . حمدا لك ياانليل . لم يكن الاكليل على صدرى . لقد خرجت من قصرى عارية من تاجى وزينتى ، من يرانى يظننى خادمة مهملة في بيت كبير أو امير ، أمة في معبد آنو أو ننا أو انليل . تلوى الصوت وزحف نحوى .

يامن تقود عربتك المطهمة بأربع حمير
وتجد لتصل بحمولتك الى بيتك القريب
اهرب واترك العربة والحمير
فعاصفة انليل على وشك الهبوب

يامن ترعى قطيعك من البقر والاغنام

وتسوقه الى الحظيرة ليهنأ بالقصب والاعشاب
ويستريح تحت ظلها من لفح الشمس وتعب النهار
أترك القطيع وابحث عن مأوى تختبىء فيه
فقد أوشكت عاصفة انليل على الهبوب

ننجــال : كانت حبال الصوت تتلوى كالافاعي السوداء وتدور في دوائر كدوامات مؤبدة تطبق عليّ . خرجت من مخبئي وواجهت العجوز وأنا أهتف بصيحة لم تخف الفرحة بصدق رؤياى . أيتها العجوز ! أيتها العجوز ! اذاً فقد رأيت رؤياى . اذن فلم تكن رؤياى وحدى ، لم تدو الرعود ولا زمجرت العاصفة فى سمعى أنا وحدى ، أيتها العجوز ... لكنها لم تحفل بى .

استمرت تقول كأنها لم تر أحدا ولم تسمع شيئا :
يامن خرجت لتوك من رحم الأم
واستقبلت الهواء فى أور بالصراخ والعويل
للموت أتيت ياولدى ، واليه تعود
للعبودية أتيت بعد أن صارت الحرية الوحيدة فى أور
ان ترجع للأم الارض قبل أن تلوث بالآثام وتوضع فى القيود
ولتسرع ياولدى قبل ان تبدأ عاصفة انليل

ننجــال : هممت ان اصرخ فلم تتفتح بوابة الرعب لينطلق لسانى . حاولت اقول ان الآلهة نفسها قدرت ألا يولد طفل بلا أثم أو خطيئة . لكنها لم تتوقف عن ضرب الوتر المشدود :

الصــوت : الى أين تنظر وماذا تنتظر ؟
وراءك ظلام وأمامك ظلام ،
وعندما تبلغ عمر الشباب وتجتاز عتبة الحياة
ستجد فى انتظارك الجوع والذل والغدر والاحباط
أنج بنفسك ياولدى قبل ان ينفخ انليل فى الابواق ،
قبل أن يهدر الاعصار ويزحف الطوفان

ننجــال : تقدمت من العجوز حتى كادت أنفى تلامس أنفها المجعد

كالبلحة الجافة . قلت لها فى همس كالفحيح : رأيت الرؤيا مثلى ؟ أليس كذلك ؟ قالت وهى تحول عينيها عنى : ورآها الألوف بعد الالوف . ثم استمرت فى نشيدها تقول :

يامن تحتالون على الفقراء وتظلمون الارملة واليتيم ،
يامن تبخسون الكيل وتغشون الميزان
وتسرقون الارض وتنسون أنها قبر السارق والمسروق
ألمْ تروا انليل يمتطى صهوات العواصف والرياح ؟
ألم تسمعوا صوته المزمجر فى الجبالِ والسهول والبطاح ؟

ننجـــال : أسرعت أقول قبل أن تختفى من أمامى : أنا سمعته ورأيته أيها العجوز . أنا وأنت قد سمعناه ورأيناه . والآلهة التى قررت المصير فى لوح القدر المقدور ، قد نطقت بالحكم ولم يبق سوى التنفيذ .

تعالى أيتها العجوز . تعالى ومعك الابناء والبنات والسادة والعبيد .

تعالوا نقرأ ما فى اللوح ونفهم الاسباب . قالوا ...

الصـوت : يامن تتأمل النجوم وتكتب على لوح من طين
قصة أور التى دمرها الاعصار وداس عليها التنين
وساقها البرابرة مغلولة الى بوابة الذل المهين
أترك اللوح والمسامير والازميل والطين
فعاصفة انليل على وشك الهبوب
عاصفة انليل على وشك الهبوب

ننجـــال : صرخت محاولة أن أوقفها فارتدَّ الىّ الصوت وغاب الشبح المتثاقل فى الظلام .

ناديت عليه ان ينتظر ، سألته ان يدلنى على الفاسدين والمغرورين والمتكبرين والظالمين ولصوص الارض والارملة واليتيم . دعوت أن يضع يده فى يدى ، أن نرفع مع الالوف والالوف ميزان العدل ونقيم بيت الحق فى البلاد ، ان نقف بوجه الاعصار ونبنى السور أمام الطوفان . لكن الوتر

المشدود انسحب كما ينسحب الثعبان الخائف فى جوف الليل ، الليل المطعون بسهم الفجر الطالع فى الافق المغبر الشاسع ، الافق المنذر بالخطر الداهم والويل القادم . وقفت وحيدة على طريق موحش فى مدينة آيلة للسقوط . من يتأملنى لايعرف انى الملكة فى القصر العالى . أتأمل حالى فى غبش الفجر فأنكر أنى الملكة راعية العدل وحامية السور . اتى فوضنى انليل وسلمنى التاج ووضع بكفى الميزان .
وأنا واقفة وحدى انتظر الغضب القادم مع انليل . والصوت الذى سمعته من العجوز يلتف حول رقبتى ويرن فى صدر خاو كالقصر المهجور . وقبل ان اردد السؤال القديم : ماذا أفعل ؟ سمعت الصوت الآخر يسقط كالصاعقة أو الجمر المتقد بنار اليأس علىّ . كأن صاحبه يتقدم على صداه . أدركت من النظرة الاولى أن صوته هو عينه التى تضىء له فى الظلام . أخذ يطلقه من فمه كالشرر المتطاير ثم يلقى قدميه وجسده الضئيل فى أثره . واقتربت منه وحركت يدى امام وجهه . حدقت فى الوجه المحفور المجدور ، فى العينين الغائرتين كقبرين صغيرين . لم يشعر بأن احدا اقترب منه أو تحرك امامه . وانهمرت الشرارات المنقذة كعيون القطط المتربصة فى ركن من اركان الليـــل :

أنت الذى وهبتنى العناء المتجدد على الدوام
دخلت البيت وروحى مثقلة بالاحزان ،
خرجت الى الطرقات وقلبى مفعم بالآلام .

ننجـــال : تقدمت منه وتأملت وجهه الجامد كوجه التمثال . قلت وأنا أنظر فى عينيه المطفأتين وقسماته الميتة : تتهمنى ولا أعرف من أنت . بحق الهك إلا أجبتنى وعرفتنى بنفسك ..

الصـوت : أنا الحكيم . لم أقيد مع السفهاء ؟
أنا الذكى لم أعد مع الجهال ؟
الطعام وفير وفى كل مكان ، لكن طعامى الجوع ،

في اليوم الذى قسمت فيه الانصبة على الناس
كان نصيبى هو العناء ..

ننجـــال : أمسكت يده شأن من يريد أن يساعد شحاذا أعمى على عبور الطريق .

أطبقت يده على يدى فشعرت بالدفء يسرى في دمائى . تشجعت وسألته : من هذا الذى سبب لك العناء ؟ سمه لتقتص منه العدالة . صفه لأحضره لقضاة العدل . قطب جبينه ورفع وجهه الى السماء قبل ان يفتح فمه الحجرى ويطلق منه طير السر الغامض .

الصـوت : الرجل المخاتل غطانى بالريح الجنوبية ،
حول كلمتى الصادقة لأكذوبة ،
خان العهد وسلط قوات الشر علىّ
وتآمر ـ وهو المخدوع الخادع ـ هو والاوغاد علىّ
فلم يحبط راعىّ العادل عمله .

قلت له بعد أن عبرنا الطريق وصرنا وحدنا : نطقت ولكن لم تقل شيئا . ألا تسمى الاسم ؟ ألا تصف الآثم ؟

الصـوت :أقف فى حضرتك وكلمتى أنين ،
أريد أن أتكلم اليك
لكن كلامى بكاء ونواح .

ننجـــال : ضغطت على يده وأسررت اليه : أنا أيضا كلمتى أنين . أنا مثلك أبكى وأنوح . لكن بعد قليل يشع النهار على البلاد . بعد قليل تنقطع الشكوى وتجف الدموع ..

الصـوت : ان كان النهار يشرف على البلاد فنهارى مظلم
ان كان الحظ يبتسم لغيرى فقد اختارنى للدموع
وانت يامن تضجرك شكاتى وتحول وجهك عن جروحى
ان كان الجرح النازف فى روحى قد خفى عليك
فانظر ما فعل المرض بجسمى
والمس ان شئت قروحى ..

ننجـــال : الهك سيخفف عنك ..
الصـوت : بل أهملنى وتخلى عنى ..
ننجـــال : أمك تدعو لك ..
الصـــوت : بل تندب حظى منذ ولدت ..
ننجـــال : مدينتك ستثأر لك ..
الصـوت : وهل ثأرت لنفسها حتى تثأر لى ؟ أنظرى حولك ان كنت
قادرة على فتح عينيك . أنظرى حولك لترى الظلم الذى
أعمى عينى .
ننجـــال : والظلمة .. من هم ؟
الصـوت : ألوف وألوف وألوف .
ننجـــال : أين أجدهم ؟
الصـوت : سيرى فى الطرقات . أمضى للاسواق . اذهبى للحقل
والمعبد والمتجر والحان ، ادخلى البيوت وانفذى فى
الصدور . ألوف وألوف وألوف .
وتسألين عن الظلمة والمظلومين ؟ افتحى عينيك . سيرى
فى الطرقات . امضى للاسواق .
ننجـــال : نفض يده فى غضب من يدى . واقتحم ستائر الظلام
والضباب وهو يصيح :
تقول مدينتك ستثأر لك ..
ومتى يا أور ثأرت لنفسك
والظلمة يا أور الوف فوق ألوف ؟
سيرى فى الطرقات .. سيرى فى الطرقات .
وامضى للاسواق ... امضى للاسواق .

★ ★ ★

- ٣ -

(ننجال مستندة بظهرها الى جدار معبد انليل . آثار التعب على جسدها المهدود ، ووجهها المنهوك ، وقدميها المعفرتين بالتراب . وقت الغروب)

ننجـــال : تعبت من السيرّ فى الأسواق والطرقات . طفت الحقول وعبرت الانهار ووقفت أمام الاسوار والبوابات . وقادتنى قدماى الى المقابر والجبانات .

فى كل مكان كنت اقول لنفسى :

أور .. يامدينتى أور ..
لا أم لى .. أنت أمى
لا أب لى .. أنت أبى
أهذه هى أنت ياأور ؟
شعبى يذرف الدموع
يلقى بنفسه فى الرغام
ينام كإناء مهشم
وأنت تتكفئين على وجهك وتبكين
أهذه هى أنت يا أور ؟

عندما كنت فى طريقى الى قصر « الانسيًّ» الحاكم رأيتهم من بعيد يدورون ويدورون . سمعت أصوات السياط وهى تلسع الظهور ، ورأيت اجساد العرٰاة المشدودة بالحبال وهى تدور . وقبل ان اتبين ملامحهم تردد فى أذنى أغنية تقول :

دورى أيتها الطاحونة دورى
العبيد حول حجر الرحى يبكون

الزراع خلف المحراث يبكون
الرعاة على مزامير القصب يبكون
دورى أيتها الطاحونة دورى

اتجهت الى المشرف على العمال وسألت : من هؤلاء ؟
- أنت ترينهم ولايرون ..
- ما معنى هذا ؟
- هم عميان . قبض جنود الانسيَّ عليهم .
- ليعاملوا كالحيوانات ؟
- ليرووا الارض فيخضر الحقل ويزدهر البستان .
- أرض الانسيَّ ؟
- بالطبع . فهو السيد والكل عبيد ....
- من أمر بهذا ؟
- ما شأنك أنت بهذا أو بسواه ؟

لولا أنك مبصرة لربطتك معهم فى النير .. هيا ابتعدى عن هذا السوط ...

وفرقع السوط يشوى الجلود التى راحت تلمع بسيول العرق وتتأجج بلهيب الشرار . وانسابت الاغنية ترجع الشكوى والانين :

دورى أيتها الطاحونة دورى
دورى أيتها الطاحونة دورى

آه ياأور ! من أمر بجلد الاعمى كالحيوان ؟ من جعل الانسان يهان ؟ مشيت أجر ساقى الى الحقل الكبير . لم أكن فى حاجة الى سؤال أحد . فالحزن يقابلنى فى عيون الانسان والحيوان . والحزن يكشف ماتطويه قلوب الحكام والنبلاء والاغنياء والاعيان :

- استولى على الارض وجعلها ملكه الخاص
- ثيران الآلهة تحرث حقوله
وحقوله هى أجود أرض الآلهة ..

ـ موظفو القصر يأخذون آموال الفقراء
ينهبون حميرهم وشياههم وبيوتهم وبساتينهم
واذا اشتروها منهم اضطروهم لبيعها بأبخس الاثمان
ـ القصر ينتفخ ويزداد ثراء
وأكواخ القصب تزداد فقرا وجوعا
ـ انظرى ! هذا هو قصر «الايشاكو»[1]
وهذا قصر حريم «الايشاكو»
وهذه قصور أطفاله
وهذه قصور حجابه وحراسه وموظفيه ..
ـ هل نظرت فى الناحية الاخرى الى الخرائب والقبور ؟
نعم نعم . هذه هى دور الفقراء
تنحنى على الارض وتعانق التراب .
تتوارى من الخجل وتتماسك كالأيتام
الأيتام الذين يبكون فى الظلام ..
ـ هل تعلمين انهم فرضوا الضرائب على كل شىء .
وان جباة الضرائب والرسوم في كل مكان ؟
ـ عندما تزوجت امرأتى دفعت الضريبة
وعندما طلقتها ضاعفوا الضريبة
ـ اذا احضرنا الاغنام لجزها فى ساحة القصر
طالبنا المشرف على الاغنام بالضريبة
والضريبة تسدد بشيقل من الفضة
وهو أغلى من ثمن الرأس من الاغنام ..
واذا ذهبنا للمعبد وقدمناها للسدنة والكهان
مدو أيديهم وطالبونا بالضريبة على القربان ..
ـ هل تعلمين ما يحدث لجارتى الآن ؟
ـ وهل تعلمين أنت من هذا المكان ؟
ـ بل قرأه فى لوح القدر المسطور

---

(١) الايشاكو والانسىّ كلمتان سومريتان تعنيان الوالى او الحاكم

ـ لوح القدر المسطور بيد انليل
رب الحكمة والعدل وحامي أور ..
ـ والراعى المسئول عن الأرملة الثكلى
عن كل يتيم وضعيف وفقير ..
ـ بالطبع . هذا يعرفه كل صغير وكبير .
ـ ها ها ! .. يبدو أن المسكينة ليست من أور ..
ـ ولماذا .... ماذا حدث لأور ؟
ـ ماعادت أور هى أور .
انقلب الحال وصارت ألواح القدر المسطور
يكتبها الانسى مع الكاهن وينفذها الحارس والشرطى المأجور
ـ هذا كفر ، تجديف ، كيف جرؤت على هذا ..
ـ أنا لا أتجرأ .. كيف تواتى الفقراء الجرأة ؟
ولسانى ينطق عما شاهدت العين
ـ شاهدت العين ؟ وأين ؟
ـ فى الجبانة فجر اليوم ...

أسرعت الى الطريق الضيق المؤدى الى الجبانة .. كان الصمت يحتوينى فى ردائه الناعم المخيف مع كل خطوة ، والاشواك تتغرز فى قدمى كلما لاحت الشواهد والاضرحة والمزارات وأشجار الصنوبر والنخيل الثابتة فى اماكنها كالحراس السود أو تماثيل الآلهة تحت وهج الشمس المحرقة . تناهت الىّ أصوات كلام وبكاء وصياح ولغط شديد . ولم يكن من الصعب أنْ اهتدى الى مصدر الاصوات المضطربة ، وان ارى امامى جنازة صغيرة وقف اصحابها عند قبر مفتوح ، وجلست النساء والاطفال برءوسهم المسندة على ايذيهم ، والنشيج المتقطع ينفجر كشلال مفاجىء بين الحين والحين . اقتربت من الجمع المحتشد ، بينما وقع بصرى على جثمان الميت الممدد أمام فتحة القبر

فى كفن مغبر فقير . رفعت الارملة رأسها عندما لمحت ظلى يفترش الارض ، ثم أطرقت صامتة . قلت : هذا زوجك . مات اليوم . قالت صبية واسعة العينين : هو أبى . مات من الجوع والاعياء . رفعت المرأة رأسها وحدقت فى وجهى بعينين مطفأتين : بل أنا التى مت مع الايتام . سألتها : ماذا تعنين ؟ نظرت الى وادركت من صمتها انها تقول : وماذا تملكين انت لى ؟ تلفت حولى فوقع بصرى على حشد من الرجال ، تعرفت من بينهم على كاتب يحمل فى يده لوحا من طين ، وشرطى تتدلى من حزامه عصا معدنية ثقيلة يطل من مقبضها رأس ثور حاد القرنين . نظروا جميعا الىّ . كان من الواضح انهم فوجئوا بحضورى وهيئتى ، وربما لمحو على وجهى آثار مجد قديم . قال رجل غليظ الوجه واليد :

ـ نحن لانعترض على دفنه . لكن الاوامر والقوانين ..

ـ الاوامر والقوانين ؟

ـ نعم نعم. لابد من دفع الضريبة .

صرخت الأرملة : وهل تأخرنا ؟ هذا كل ما نملك ..

قال الرجل ذو الوجه الغليظ : لايكفى . لايكفى .

سألت الرجل : ولهذا أرسلتم من يفتشون البيت ؟

قال الرجل والارملة فى وقت واحد : ان وجدوا شيئا فيه ..

سألت مرة أخرى : ويبقى الميت هكذا ؟

أسرع موظف آخر نحيل الوجه واليدين بصورة ملحوظة : الأوامر والقوانين .. تدخلت الأرملة ورن صوتها كجرس خافت معلق فى رقبة شاة عجوز :

ـ هل تعلمين ماذا فعلوا ؟ لم نكد نضع الميت على الارض ، ولم تكد شفاهنا تختم الضراعة لالهة العالم السفلى ان لاتضر به شياطين «الجالا» بالسياط ولاتمرغه فى الوحل والتراب ، حتى ظهروا كجيش من الغزاة المتوحشين انقضوا

علينا وعلى الميت ، منعونا من وضعه في هذا القبر الذى كلفنا مؤونة شهور ـ

قلت : ومن هؤلاء ؟ من أرسلهم ؟

ردت الارملة ساخرة : تقولين من ؟ كأنك غريبة عن أور ..

قلت أدارى خطئى : هم جباة الضرائب والرسوم ؟

قالت الارملة وهى تشير بسبابتها اليهم واحدا بعد واحدا ؛

ـ بل حشد من الذئاب يسمونهم الموظفين والمحصلين والمرابين والمتطفلين .

لو كان لدموعى ثمن لتقاضوا عليها الرسوم . لو دموع اطفالى وحسراتهم تباع لأسرعوا بدسها فى الجيوب والاكياس . ومع ذلك نهبوا ما معنا من الخبز والنبيذ ، بعد أن حضروا للبيت مساء وزوجى يحتضر وسلبونا المخزون من الغلة والجعة والشعير ..

قلت وأنا أقلب عينى فيهم : ومازالوا ينظرون مايتمخض عنه البحث والتفتيش ...

قالت الارملة قبل ان يذكرها أحدهم بالاوامر والقوانين : ويظل المسكين

هكذا حتى يرجعوا خائبين .

ضحك أحدهم وكشر عن نابه : لاهو من أهل الارض ولا العالم السفلى ..

مرت أصابعى مسرعة على ذراعى وأذنى وصدرى . وفى لمح البرق كنت أناولهم قطعة من الحلى الذهبية لم أعرف حتى الان ماذا كان النقش المرسوم عليها . تكالبوا على اليد التى وضعتها فيها وصاحوا كالخنازير وأنا أعطيهم ظهرى واسرع على الطريق :

ـ ذهب .. ذهب من مقبرة الملكة ننجال ! ..

ننجال : آه يا أور

هل انت مدينة اور ؟

والذين اقسموا القسم امامك ياملكة أور ..

لماذا خانوا العهود ونكثوا الوعود ؟
لَمَ قلبوا ميزان العدل
وهدموا الناموس ؟
كان المعبد والقصر والحقل والبستان ملكا للآلهة
والآلهة عندما خلقت الانسان من الدم والطين
طبعت صورتها عليه وقالت :
لم تخلق الا لتخدم الآلهة وتعبدها
فلماذا جاء «الانسى» ووضع الآلهة والبشر فى خدمته ؟
لماذا استحوذ المشرف على الحقول على محاصيل الحقول ؟
واستأثر ناظر الحظائر بالماشية والقطعان
ونهب رئيس الشرطة حق الأرملة واليتيم
وانتشر الزبانية من حدود البلاد الى البحر الاعلى
ومن البحر الاعلى الى حدود البلاد ؟ ..
آه يا اور !
لماذا أكل الجميع لحم الجميع
واستعبد الجميع الجميع ؟
وأنت ياننجال ، ياملكة آور ..
يامن وكلك «انليل» عنه لاقامة العدل فى البلاد لماذا سقط من يدك الميزان
وفى التراب وقع السيف والتاج والصولجان ؟
لماذا صدقتهم وتركتهم يحكون لك القصص والاساطير :
الحاكم والوزير ، والقائد والناظر ، والمشرف على الحقول والمصايد والبساتين ؟
وبقيت بقصرك حتى باع الأب أولاده
وسلم الرجل أفراد عائلته للدائنين
وصار الرعاة سجانين والرعية مساجين
ماذا أقول للطفل حين ينظر فى عينى وتقول دموعه :
ولدت فى آور وليتنى ما ولدت فى اور ..

وبعد آن كنت أعاقب المذنبين والمجرمين والاشرار
وأمر برجم السارق والمجرم اللئيم
وأرضى قلب إنليل بالسكائب والأضاحى والقرابين
أصبحت أطوف شوارع آور فلا يعرفنى العبد ولا الأمير
آكلم الناس فيحسبوننى خادمة أو بغيا فى معبد انليل
هل يرضيك ماحدث لأور يا انليل ؟
هل هذا هو غضبك على آور وملكة آور ؟
كثرت علامات الشؤم فى كل مكان
فسرها يا انليل .
قل كلمتك تكلم ..
يامن استند من التعب على حائط محرابك
ساعدنى ، ساعد أور
انى أتضرع لك :
إرفع غضبك
أوقف اعصارك
وافعل بى ماشئت
فأنا خادمة لك
دمرنى أو أهلكنى
لكن لاتهلك أور ..
لكن لاتهلك أور ...

★ ★ ★

- ٤ -

(فى معبد انليل . ننجال تقف باكية مشعثة الشعر فى المحراب المقدس امام تمثال ضخم للاله انليل ..)

ننجـــال : كلمنى يا انليل
يامن كلمتك مقدسة ،
وكلامك لايتبدل ،
رد على أسئلتى الحيرى ..
هل تذكر يوم وضعت على رأسى التاج وسلمتنى الصولجان
وأتمنتنى على القوانين المقدسة
وكشفت عن أمرك الذى هو كلمة قلبك ؟
بكلمتك فاضت الأنهار بالماء ،
ووضع سمك البحر بيضه فى أدغال القصب ،
وبنت طيور السماء أعشاشها على الأرض الفسيحه .
وجادت الغيوم السائرة بمائها
ونمت الاعشاب والنباتات فى السهول
وازدهر القمح الوفير فى المراعى والحقول .
يومها قلت «لأور» وأنت تباركها :
أيتها المدينة الموفورة الزاد
أيتها المدينة العميقة المياه ،
الراسخة كالثور القوى الثابت
أنت يامنصة خير البلاد .

خضراء أنت كالجبل ،
وارفة الظلال كالغابة ،
ليرتفع اسمك الى قلب السماء
وليعل مقامك فوق الاقطار
ليبحر فى أعيادك السمن واللبن
ولتجلب مخازنك السعادة والأفراح
هذا ما قلت يا انليل
يوم اتخذت أور مسكنا لك ،
وباركت أسرابها وقطعانها ،
وبيوتها ومعابدها ،
وجعلتها بلدك المقدس المختار ،
فلماذا تأخذ كلمتك وتتركنا للصمت ؟
لماذا جفت الانهار ،
وذبلت المراعى والحقول ،
وهجرت سماءنا الغيوم والأطيار ؟
كلمنى يا انليل ..
أيها الراعى المبجل الجليل ..
ويوم وضعت فى يدى الميزان
وقلت لى يانيجال :
كونى راعية الارملة واليتيم ،
كونى مأوى الضعفاء وملاذ الفقراء ،
أطردى الاشرار والسيئين ،
أويت فى حضنى الفقير واليتيم
واسيت الارملة والمسكين ،
نصبت الميزان واوقفت أمامى الصالحين والطالحين
وبجانبى وقفت الالهة «نيدابا» الهة الكتابة والحساب
تنقش الاعمال وتسجلها على ألواح الطين
ويشهد عليها «خاى» مع شهود عديدين

سلمت القوى للضعيف ،
وعينت المكان الذى يهلك فيه الطغاة ،
نفذت الى قلوب الاشرار
وعاقبت من سلك سبيل العدوان
من تخطى الحدود ونقض العهود ،
أدبت من اغتصبت يده ما لايملك ،
من نظر نظرة الرضا الى مواطن السوء ،
من بدل الوزن الصغير بالوزن الكبير
والكيل الصغير بالكيل الكبير ،
من أكل ما ليس له ولم يقل آكلته ،
ومن شرب ما حرم عليه ولم يقل شربته .
منعت رجال السلطة من أن يقترفوا إثما
فى حق يتيم أو أرملة أو مسكين ،
حرمت على تابع الملكة أن يقبض على الرجل الاعمى ليروى حلقه بالمياه ثم يحرمه من الطعام
ويحرم حماره من الماء ،
فرضت على السارق أن يرجم بحجارة كتب عليها قصده الشرير ،
وأمرت ان تعلق الممتلكات المسروقة على البوابة العظيمة يستدل عليها مالكها الشرعى ويستردها ،
والمرأة التى تخون رجلها والرجل الذى يخون امرأته كانت أسنانهما تهشم بآجر محروق ،
وكان هذا الآجر الذى كتب عليه ذنبهما يعلق على البوابة العظيمة .
أمرت ياانليل ونفذت أوامرك
لم أسمح للجائر والظالم والخوان
أن يقف أمامك ،
لم أسمح للمتكبر والمتسلط والغدار

ان يفلت من شبكتك ،
وفاض الخير والرخاء على أور
واعتز الانسان بالخير والصدق
والاستقامة والامانة
والرأفة والعدل والاحسان .
لكنك حولت وجهك عنا يا انليل ،
سكت وقطبت جبينك كما تقطبه الآن
واجزت أن يفلت الظالم الشرير من شبكتك
ويضع أور وساكني أور في جوفه :
فالمشرف على العمال يستغلهم فى أعماله ،
والموكل بالملاحين يغتصب السفن لنفسه ،
ورئيس الرعاة يسلبهم الحمير والماشية والاغنام ،
وكاهن المعبد يستحوذ على الاضاحى والسكائب والقرابين
ورئيس الشرطة يتقاضى الفضة حتى على ترديد الانفاس
وجباة الضرائب المنتشرون من البحر الى أقاصى البلاد
يحصلون الرسوم والأقوات حتى من الاموات
وانا التى تعرف قلب الأرملة واليتيم ،
وتنشد العدالة لأفقر الفقراء ،
أنا التى تعرف ظلم الانسان للانسان
أسألك يا انليل وأسأل نفسى :
ماذا شوه هذا الانسان ؟
ماذا حوله ذئبا يفترس أخاه ،
كلبا مسعورا يغرز فيه نابه ؟
ماذا يجعله يتلذذ بالغدر وسوء النية ؟
يرتكب الذنب الفادح ويبرر ذنبه ؟
يظلم باسم العدل ، ويضطهد لاجل الحرية ؟
اتقول بأنى قصرت ؟
أتقول لزمت القصر ونمت ؟
لا لا لا . انا ما قصرت

أنا يا إنليل عجزت ..
قالوا أور بخير ، صدقت .
حتى امتدت ألسنة النار الى عتبة قصرى حرقت بابى وثيابى
فأفقت
لكن بعد فوات الوقت
بعد فوات الوقت .
قل يا انليل ، تكلم ،
لا تتركنى فى هذا الصمت .
يا راعى الضعفاء وحامى الفقراء ،
يا من تسلمنا العدالة من يدك
كما تلقينا النور من الشمس
هل آن لنا أن نتخبط فى الليل ؟
هل هبطت فى هذا الليل شريعة الظلام ؟
قل كلمتك ، تكلم .
من يرفع يده غيرك
كى يوقف مرتكب الاثم
ومنتهك الحرمة ؟
قل كلمتك تكلم .
يامن تمسك لوح القدر
وتنفذ عينك من حجب الغد
هل قررت قرارك أن تهلك أور ؟
هل صممت ولم يبق سوى نطق الحكم ؟
الأمر بيدك ، ولك ما شئت
عاقبنى ، بدد ملكى
أهلكنى إن أحببت ،
لكن لا تهلك أور ..
لكن لا تهلك أور ..
هل يرضيك ان يهجم علينا البرابرة ذوو اللحى الطويلة

والقلوب القاسية من الجبال الشمالية ويغطو أرضنا كالجراد ؟ ان كان يرضيك ان يسوقنى «سرجون» جديد مغلولة العنق الى بوابة انليل ، ان كان يرضيك آن آقتاد من خشبة تطوق رقبتى الى البوابة العظيمة لألعن واضرب بالسوط ويبصق على كل الذين اعبر بهم في طريقى الى الاسر آو الموت ، فهل يرضيك آن يجرى هذا لأور وشعب آور ؟ هل يرضيك آن تخرب مدينتى وتهدم آسوارها وييتم آطفالها ويغسل البرابرة اسلحتهم بدماء ابنائها وبناتها ؟ هل يرضيك ان تقتلع اسس بيوتنا وجذور آشجارنا ونحرم من بذورنا ؟ هل يرضيك ان تؤخذ الزوجة من زوجها ، ويذبح الرضيع على حجر آمه ومرضعته ؟

يا انليل تكلم !

قل كلمتك ! تكلم !

هل هذا هو اعصارك

رعدك ، برقك ، والطوفان ؟

هل صدقت رؤياى وحط علينا الهول ؟

ارجوك تكلم !

قل يانتجال :

بل هى وهم .

أو هى أضغاث الاحلام .

ياانليل تكلم

لاتتركنى فى هذا الصمت .

حول وجهك عنى ،

انزع ملكى

آو عاقبنى بالموت ،

لكن لا تسكت عنى

لا تتركنى فى هذا الصمت ،

لا تتركنى فى هذا الصمت ..

★ ★ ★ ★

- ٥ -

(فجر ازرق جاف ، فى الافق لمعان ينبىء عن وهج نهار شديد القيظ . ننجال تقف تحت «البوابة العظيمة» فى اطراف اور . تستند الى جدار وتحدث نفسها بينما تظهر اشباح رجال ونساء وصبية واطفال يفدون الى الساحة من كل جانب دون أن تشعر بهم ..)

ننجــال : آه ياننجال ..

فى صدرك تتصارع نفسان
واحدة تدعوك : اذهبى للبعيد البعيد
هناك خلف الافق ووراء الحدود
ولا تفكرى يا ننجال ابدا أن تعودى
والاخرى تهتف بك : بل تبقين ياننجال فى أور
تبقين لتواجهى الشر المستطير
وتقضى على سارق الأرملة واليتيم والضعيف والفقير
والظالم والكاذب والنمام والمغرور
آه يا ننجال ..
تحت قدميك يمتد طريقان
تضطرب وتتعثر تحتهما خطوتان :
تريد احداهما ان تأخذك الى اعدائك
فى «أوما» أو «أكد» أو «عيلام»
وهناك تصرخين أمام عرش الملوك القساة
ساعدونى فقد عجزت عن حكم البلاد
سقط الميزان من يدى وفى الدم والوحل والتراب
مرغه السفلة والجهلة والانذال والاوغاد

آه يا ننجال ..
فى حلقك يحتبس ويتقابل صوتان
احدهما يعول وينوح : سقطت أور ..
سقطت أور ولا أمل هناك ولا نور ..
والآخر ينذر ويحذر ويقول : لا .. لم تسقط آور ..
ولن تسقط آور
لن يهدم هذا السور
ولن تقتلع من الأرض جذور ...
آه يانتجال ...

عندما حضرت الى هذه الساحة كان الليل قد بدآ يغطي آور بستاره الكئيب . خيل اليك أن الرؤيا تأخذك الى الماضى وتطوق حاضرك المختنق ثم تطير بك على جناحى نسر أسود الى الغد المجهول . ورأيت نفسك فى الماضى عندما كان موكبك يبدأ من هذه البوابة العظيمة ، ليعبر الساحة تحت الاقواس المزينة بالرياحين وباقات الزهور ، ووسط الهتافات والدعوات بالنصر والبشر والرخاء ليمر بشوارع وبيوت آور . كان مهرجان الاحتفال ببعث الأرض والخصب هو مهرجان ملكى المتجدد وعدالتى الساهرة بالليل والنهار . وتذكرت الميزان المنصوب فى الساحة ، وجثث الاشرار المشنوقين على الاسوار والاعمدة والاشجار ، والكتبة المشغولين بوسم ذنوبهم على جباههم ، وتدلية مسروقاتهم واثار جرائمهم وبقايا أسلحتهم من أقواس البوابة وأركانها ، ثم تذكرت خاتمة الحفل وذروته فى معبد انليل ، وأنا أحمل الشاة السمينة والحمل الوديع على صدرى واقدمه لكبير الكهنة والحجاب ليسرع بتقديمه مع السكائب والقرابين . كانت الرءوس السود تطرق رهبة أمام الميزان ، والقلوب تخشع إجلالا للناموس ، والسيئون والاشرار يرتجفون لمرأى التاج والصولجان ..
آه يانتجال ...

وماذا رأيت اليوم وأنت تقطعين ميادين وطرقات أور ؟ ماذا قلت للتائهين الذين وجدتهم فى هذه الساحة من جائعين وضائعين وعاجزين :

ـ ياأبنائى .. لِمَ تسيرون فى الليل الاعمى كأنكم لاتبصرون ..

ـ اسألى آور .. فقد ضيعتنا أور ...

ـ ياأرباب الحرف .. لماذا تقفون هنا ولاتعملون ؟

ـ أصبحت حرفتنا الوحيدة هى التسول فى الطريق ..

ـ هل يتسول من يتقن عمله ؟

ـ لايتسول الا من يتقن عمله ... مادامت صنعته لا تملأ جوفه .. مدام الانسىُّ والشرطي والمشرف والناظر والنبيل والكبير يسرقون ... مادام الاتقان يجر عليه الحسد والهوان ... ؟

ـ وممن تتسولون والكل جائع وفقير ؟

ـ ممن أجاعنا وأفقرنا ..

ـ من تقصدون ؟

ـ قد يتعطف عليناموكب الانسىُّ العابر ببعض الفضلات .. قد يلقى الكهنة من فوق جدار المعبد بنفايات القربان .. واخيرا ..

ـ اخيرا ؟ ..

ـ قد يأتى الحل على أيديهم ..

ـ أيدى من ؟

ويقهقه العاطلون والمتسكعون والعجزة المكتئبون والمشلولون والمجدورون والمجذومون الذين يتجولون فى الساحة أو ينتظرون .

ويقول واحد منهم :

ـ ألم تعرفى بعد ؟

ـ ألم تسمعى

ـ الم تشعرى ؟

ـ ماذا أعرف أو أسمع وبماذا أشعر ؟ ..

وتعلو ضحكاتهم وهم يسعلون ويبصقون : البرابرة

قادمون ..
البرابرة قادمون ..
وتدور الفكرة فى راسى وتدور . يوشك أن يخرج من حلقى الصوت الصارخ ويقول . أنا ننجال ملكتكم ، وملكة آور ..
ضائعة وسط الساحات
وتائهة بين الدور
وأدور أدور أدور
كأنى قطعة صلصال
فى يد فخار مخمور
من يحضر ثوبى الملكى
وسيفى المشهور ؟
من يضع التاج على رأس
أثقلها الحزن
فسقطت كالطير الهالك
فى شبكة قدر مستور
قدر ينذر بالويل القادم
والخطر الداهم كالديجور
ياأبناء آور وبنات أور ! ها أنا أتقدمكم الى البوابة العظيمة . أجلس على كرسى الملك وأضع التاج على رأسى . اجلس منتظرة وفى يدى مفتاح المدينة . هل هم قادمون ؟ نعم . لابد انهم قادمون . من الجبال الشمالية كالجراد زاحفون . وعندما تبدو جيوشهم من بعيد وهى تثير سحب الغبار والدمار الزاحف على آور ، سأقول فى نفسى كما تقولون : آه ! انهم قادمون . انهم قادمون . ربما يكون حضورهم هو احد الحلول ...
وتمر أمامك المرأة المثقلة بحمل السنين والاحزان كأنها نخلة عجفاء ويتمدد صوتها القاتم ويتلوى كحبل يلتف عليك :

يامن تضعين التاج على راسك
وفى يديك السيف والصولجان
اخلعى التاج والمجد والشارة والوسام
واهدمى خيمة الملك والأبهة والسلطان
فالبرابرة على وشك الوصول
البرابرة على وشك الوصول
يامن تقود عربتك المطهمة بأربع حمير
وتجد لتصل بحمولتك الى بيتك القريب
ابحث عن جدار تأوى اليه واترك العربة والحمير
فالبرابرة فى الطريق وهم على وشك الوصول

يامن تقف على عتبة الحياة وتنظر للبعيد البعيد
فترى الظلام وراءك وامامك
ولا شىء غير الحاضر المنكود والغد الموءود
تعال الى البوابة العظيمة
لتكون فى استقبال المواكب والحشود
فالبرابرة ـ كما سمعت ـ على وشك الوصول
والبرابرة ـ كما علمت ـ هم احد الحلول

آه يانئجال !
لكن النفس الاخرى تقفز فى الصدر كوحش مسعور . تثبت وتتحدى وتثور . والقدم الاخرى تقف وتتصلب كالحجر الراسخ فى فتحة نفق مهجور .
والصوت الآخر يرتفع ويزعق ، ينذر ويحذر يشكو ويقول :
ايتها الملكة التى هدمت مدينتها ، كيف تقدرين الآن على البقاء ؟
ايتها المرأة التى هلكت بلادها، كيف ابقى عليك قلبك ؟
بعد أن هدمت مدينتك ، كيف تقدرين على البقاء ؟
وبعد ان دمر بيتك ، كيف ابقى عليك قلبك ؟

ذوو الرءوس السود تحول غناؤهم الى بكاء ،

حقولهم وبساتينهم صارت أرضا جرداء ،
مدينتك التى كانت مدينة الخير والصلاح أصبحت خرائب
بيتك الذى كان بيت العدل سلم للمغول
كيف أبقى عليك قلبك ؟
كيف تقدرين على البقاء ؟

الخادم لم يعد لك الآنية المقدسة
عندما حلت أعيادك لم يحتفلوا بالاعياد على طريقك الذى
اعد للمواكب والعربات تنمو الاشواك
وتشكو العجوز المثقلة بالاحزان ويئن الأعمى المتجدد العناء
آه ! كيف أبقى عليك قلبك ،
كيف تقدرين الآن على البقاء ؟
ننجال يامليكتى ، مدينتك تنتحب بين يدى امها ،
كطفل يتيم فى شارع خرب ، تبحث عنك أور ،
والبيت الصالح المشيد بالآجر يمد يده اليك
كرجل فقد كل شىء وهو يقول :
الى اين تتركيننى ، كيف ابقى عليك قلبك ؟

غادرت البيت يامليكتى ، غادرت المدينة ،
خرجت الى الساحات والطرقات ككاهن طرده الهه
وراح يمشى تائها فى العراء
كيف طاوعك قلبك أن تقفى عند البوابة العظيمة وتخاصمى
المدينة
كيف تقدرين على الجلوس هناك فى انتظار البرابرة القادمين
هل يرضيك ان تذبح الارملة واليتيم والضعيف والفقير ؟
هل يرضيك أن يخطفوا الزوجة من زوجها والابنة من أبيها ؟

ننجال ، أيتها الأم والمليكة ،
عودى كثور لاسطبلك ،

كشاة لحظيرتك
كطفل صغير لحجرة نومك ..
ايتها العذراء ، عودي الى بيتك ..
ياراعية العدل عودى الى بيتك وارفعى الميزان .

وفجأة يانتجال وانت غارقة فى رؤياك ،
فجأة وانت تنتظرين البرابرة وزحف الاعصار والطوفان
فجأة يجلجل صوت صارخ كأنه صوت الهك انليل :
طاردى السيئين والاشرار !
طهرى أور من اللصوص والاوغاد ! عودى أيتها الشاردة الى قصرك !
عودى أيتها العذراء الى بيتك !
ورأيت جموعا تتزاحم مقتربة كالامواج الهادرة . وعندما اقتربت من البوابة العظيمة لمحت على رأسها وجها أعرفه . كان هو وجه مرضعتى ومربيتى العجوز . أعرف هذا الوجه الطيب الحبيب ، بل أوشك فى همى وحزنى الا أعرف سواه أو أثق بسواه . لكن ماذا تحمل فى يدها المرتفعة فوق زحام الحشود كالعلم الخفاق ؟ كان فى يدها السيف والتاج والصولجان . تلمع فى وهج الشمس الساطعة كأنها شموس وكواكب صغيرة .. وتردد الصياح الحاد ودوى كالرعود .
ننجال ! عودى الى مدينتك
مليكتى ! عودى الى أور
إن كان اللصوص والاوغاد فى كل مكان
إن كان هذا هو غضب انليل
ونذيره بالسيل الماحق والطوفان
فها هو صوت انليل راعي العدل والأمانة والامان
يرتفعُ من قلب اليتيم الفقير والعامل والزارع والكاتب المهان
يعلو فى آذنيك ويعلو ويصيح :
عودى يانتجال !

عودى يانتجال !
باسم الحقل وباسم السنبلة الخضراء ،
باسم المحراث وباسم المركب والمجداف ،
باسم الاشجار وباسم الاسوار ،
باسم الماضين وباسم الآتين .
عودى يانتجال الى اور وردى أور الى اور ،
خذيها من فك الأفعى والتنين
واعطيها للطفل الضاحك للمستقبل
ولكل شريف وأمين عودى يانتجال !
ها هو سيفك ، تاجك ،
مدى يدك ليضع الشعب الحكمة فيها والميزان
عودى يانتجال الى آور
قولى معنا : لن تسقط آور
لا لا لا .. لن تسقط آور ...

قمت مذعورة من مكانى كأنى حيوان ضرب على رأسه أو قطع لسانه بسيف المفاجأة . زاغت عيناى ولم أفهم شيئا مما يدور حولى . وانحسرت ظلمات الرؤيا شيئا فشيئا وتسللت أشعة الضوء الى صدرى ورأسى وعينى ففتحتهما على الطوفان الهادر من حولى ، والاعصار المدوم فى سمعى . وامتدت يداى الى يد مربيتى لتستقبل الحب ومعه التاج والسيف والصولجان والميزان . وقبل أن ينفتح فمى ويخرج منه الصوت الغاضب كالاعصار شعرت بجسدى محمولا فوق الطوفان .

شكرا يا انليل ! هذا هو اعصارك والطوفان . ولابد أننى قد نطقت وصحت وصرخت ، اذ راح الصوت يهدر ويزمجر ويزحف مع الموكب الزاحف على أور :

لا لا لا .. لن تسقط اور
ابدا لن تسقط أور ..
لن تسقط اور ... ،،،

فهرس

كتاب الهلال القادم

دع الخجل
واستمتع بالحياة !

بقلم : الكاتب الفرنسى الشهير

بول جاجو

ترجمة : محمد عبدالمنعم جلال

يصدر ٥ يولية سنة ١٩٨٩



الهلال

مرآة العقل العربي

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول . الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع ٤٢٨٢ / ٨٩

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٤٢٣ ـ ٧